سلسلة الدراسات القرآنية

٣

المعوقون في القرآن الكريم

العوائق الداخلية في مسيرة الإيمان والتاريخ

د. محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

المُعَوِّقونَ في القُرآنِ الكَريم
العَوائقُ الدّاخليّةُ في مَسيرةِ الإيمانِ والتّاريخِ

د. محمد محمود مرتضى

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ ٣

المُعَوِّقُونَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

العَوائِقُ الدّاخليّةُ في مَسيرةِ الإيمانِ والتّاريخِ

د. محمد محمود مرتضى

مَركزُ بَراثا للدّراساتِ والبُحوثِ
بيروت - بغداد

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة

يَتخطّى النصُ القرآنيَ كَونَه أحد مَصَادر التشريع الإسلاميّ واستنباط الفتوى، مع التسليم بأهميّة هذا الدور؛ ولئِن كان التراثُ التفسيريّ يُحاولُ تنزيل النصّ القـرآنيّ على مُشـكلات الواقـع في منظورها الأوسـع في مجالات السياسـة والاجتماع والفلسـفة، إلا أنّنا في (مركز براثا للدراسـات والبحوث) شـخّصنا حاجةَ المجتمع الإسـلاميّ إلى مسـتوى أعمق من الاتصال بعلوم القرآن، تبدأ من إشاعة الثقافة القرآنيّة كمنهج معرفيّ وأسلوب حياة وطريقة تفكير، ومنْ ثَمّ قرننـا تبيين المباني القرآنيّة لكلٍّ قضايـا الفكر ومناحي الحياة في قِبال نظَيرتها الغربية الماديّة أو الالتقاطيّة.

نُحـاولُ في هذه السلْسـلة تطوير فهـم المتلقي حول القـرآن باعتباره كتاب هدايـة، وحاويًا عـلى منهَج حياة ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـابِ مِن شَيْءٍ**﴾، وتوفير الأرضيّة التي من شـأنها تعميق الدرس القرآنيّ، ونقد الدراسـات الأخرى عن المعرفة، والإجابة عن الأسـئلة الفكريّة والتحدّيات الاجتماعيّة التي تلحّ على العلماء انطلاقًا من أرضيّة القرآن؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "إنَّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري عـلى آخرنا كما يجري على أوّلنا". وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "كتاب اللّه فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و فصل ما بينكم و نحن نعلمه."

ومـن خلال (سلْسـلَة الدِّراسـات القرآنيّة) نفتحُ مسـاحةً للتثاقـف العلميّ المُنصـف والنقد البَنَّاء للرؤى الاسـتشراقيّة والغربيّـة، ونحاول تقديم إجابات على الشـبهات المطروحة، والتي أهمها شـبهة أن القرآن نصٌّ تاريخي لم يعُد صالحًـا لظروف العصر، فنثبت بالدّليل العلميّ وبالمصاديق العمليَّة كلام أمير المؤمنـين عليه السلام: "... وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق, لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلاّ به».

المُقدِّمة

لقد واجَهَتِ الدَّعوةَ الإلهيّةَ، عبرَ العُصورِ، تَحدِّياتٌ كبيرةٌ، تمثَّلَتْ تارةً في أعداءٍ ظاهرينَ يَرفعونَ السِّلاحَ، وتارةً في جَبهاتٍ مَعلومةٍ تَخوضُ المُواجَهةَ من خارجِ الصَّفِّ الإيمانيِّ؛ ولكنَّ التَّحدِّياتِ الأشدَّ خطرًا، والأكثرَ خَفاءً، تمثَّلَتْ في أولئكَ الذين يَنتسبونَ إلى الدّاخِلِ، ويستوطِنونَ أكنافَ الرِّسالةِ ومَضاربَها، ويتكلَّمونَ بلغتِها، ورُبَّما يُحسَبونَ على صَفِّها، لكنَّهُم يُعوِّقونَ حركتَها، ويُثبِّطونَ هِمَمَ حَمَلتِها، ويَقفون سدًّا خفيًّا أمامَ نجاحِها وتَحقُّقِها. وهؤلاء هُم «المُعوِّقون» الذينَ أشار إليهمُ القرآنُ الكريم، بوَصفِهم حالاتٍ نفسيّةً-اجتماعيّةً مُركَّبةً، تُشكِّلُ العائقَ الأخطرَ في مسيرةِ الإيمانِ والتَّحوُّلِ الحضاريّ.

وإنَّ قراءةَ لفظِ "المُعوِّقينَ" في سياقِه القُرآنيِّ لتَكشفُ لنا عُمقَ المَفهومِ؛ إذ يُرادُ به تَوصيفٌ دقيقٌ لنَمطٍ بشريٍّ يَظهر في كلِّ عهدٍ من عُهودِ النُّبوّاتِ، ويَتكرَّرُ في كلِّ دورةٍ من دوراتِ الإصلاحِ، ويتَّخذُ أشكالاً مُتعدِّدةً: من التَّخذيلِ والتَّسويفِ، إلى السُّخريّةِ والتَّشكيكِ، إلى

الإرجافِ والتَّشويشِ. إنَّهم لا يُشعلونَ نيرانَ المَعاركِ، لكنَّهم يُفسدونَ مَقاصدَ النَّصرِ، ولا يُواجهونَ الحقَّ صراحةً، لكنَّهم يُنهكونَه بالتَّثبيطِ والتَّفريغِ والتَّشويشِ المُتواصِل.

من هنا، يَنبثِقُ هذا الكتابُ بوَصفه مُحاولةً جادّةً لفَهمِ هذه الظّاهرةِ الدّاخليّةِ المُتكرِّرةِ في النَّصّ القُرآنيِّ، والرَّبطِ بينَ أبعادِها النَّفسيّةِ والسُّلوكيّةِ والرَّمزيّةِ، من جهةٍ، ومَساراتِ الرِّسالاتِ الإلهيّةِ في التّاريخِ من جهةٍ أُخرى. وقد آثَرنا أن نَقرأَ المُعوِّقينَ باعتبارِهم أنماطًا ذهنيّةً وشَبكاتٍ رَمزيّةً، تُنتجُ خِطابًا مُثبِّطًا، وتمُارسُ التَّعويقَ بأدواتٍ مُتعدِّدةٍ، قد تكونُ فكريّةً، أو عاطفيّةً، أو ثقافيّةً، أو مُؤسَّسيّةً.

ولأنَّ القرآنَ الكريمَ، في سردِه لِقصصِ الأنبياءِ، يُؤسِّسُ للرُّؤى، فقد حَرصنا في هذا الكتابِ على التَّرتيبِ التّاريخيِّ لنَماذجِ المُعوِّقينَ بحسبِ تسلسُلِ النُّبوّات، لنكشفَ كيفَ تتغيَّرُ الوجوهُ، وتختلفُ الأزمنةُ، لكنْ تَبقى أدواتُ التَّعويقِ مُتشابهةً في بنيتِها العَميقةِ. فمِن قومِ نوحٍ الذينَ سَخِروا من مَشروعِ السَّفينةِ، مرورًا بالسّامريِّ الذي صنعَ فِتنةَ العِجلِ بعدَ خُروجِ بَني إسرائيلَ من مصرَ، إلى المُنافقينَ في المدينةِ الذينَ زَلزلوا الصَّفَّ يومَ الأحزابِ وتبوك، يَتكرَّرُ "المُعوِّقُ" بوصفه شخصيّةً نمطيّةً خافتةً في صَوتِها، لكنَّها فاعلةٌ في أثَرِها.

وإلى جانبِ التَّحليلِ التّاريخيِّ والسِّياقيِّ، سَعينا في هذا الكتابِ إلى تتبُّعِ الرُّموزِ القرآنيّةِ التي تُشيرُ إلى المُعوِّقينَ دونَ أن تُسمِّيهم صَراحةً،

مثلِ العَمى بصفته رمزاً لانسداد البَصيرة، والقُعود بصفته رمزاً للانسحاب من الميدان، والزلزلة بصفتها رمزاً لهَشاشة الصَّفِّ، والمرَضِ بصفته رمزاً للخللِ القلبيِّ الذي يُعجزُ عن الثَّبات. فهذه الرُّموزُ، الحاضرةُ ضمنَ سياقاتٍ مُتعدِّدة، تُشكِّلُ مَعًا "جهازاً رَمزيًّا قرآنيًّا" يمُكِّنُنا من فَهمِ المُعوِّقينَ في العُمق، لا في السَّطح فحسب.

ومن ناحية تَربويّة، كان هدفُ الكتاب محاولةَ فَهم كَيفيّة التَّعامُلِ تربويًّا خُلُقيًّا معَ مَن يَحملونَ سماتِ التَّعويق، هل يُقصَونَ فَورًا؟ أم يُعطَونَ فرصةً للتَّهذيبِ والتَّكميلِ؟ وكيفَ وازنَ النبيُّ ﷺ بينَ الحزمِ في كَشفِهم، والرَّحمةِ في احتوائِهم؟ وما هيَ الوسائلُ التَّربويّةُ التي قدَّمَها القرآنُ لبناءِ "الصَّفِّ المُقاوِم" في مُواجهةِ التَّعويق؟

وفي ختامِ البناء، كان لا بدَّ من التوجُّهِ إلى واقعِنا المُعاصر؛ إذ لم يَعدِ المُعوِّقونَ فيه مُجرَّدَ أفرادٍ، وإنَّما أصبَحوا خطاباتٍ وثقافاتٍ وأنظمةً ووسائلَ إعلامٍ ومُؤسَّساتٍ بيروقراطيّةً وتعليميّةً. ويمُكِنُ القولُ إنَّ بعضَ "المُعوِّقينَ الجُدُد" يتسلَّلونَ تحتَ شعاراتٍ بَرّاقة، ويُقدِّمونَ أنفسَهم على أنَّهم أهلُ حِكمةٍ واعتدال، وفي الحقيقةِ يُفرِّغونَ الدِّينَ من رُوحِه، ويُعطِّلونَ الفكرَ من جُرأتِه، ويَشلُّونَ الإرادةَ الجماعيّةَ باسمِ الواقعيّةِ أو المَصلحة، لذا خُصِّصَ فصلٌ كاملٌ لأدواتِ المُعوِّقينَ المُعاصِرينَ، التي تتجلَّى في التَّسخيفِ الإعلاميِّ، والعَقلنةِ الباردة، والتَّمويلِ المَشروطِ، وكلُّها أدواتٌ تُشكِّلُ منظومةَ تَعويقٍ حديثةٍ يَجبُ كشفُها.

وبهذا الاعتبار، فإنَّ الكتابَ لا يَدَّعي الاكتمالَ، ولا تَقديمَ سَرديّةٍ نهائيّة، وإنَّما يَفتح بابًا لفَهم قرآنيٍّ عَميق لحقيقة المُعوِّقينَ، في التّاريخِ والواقعِ، وفي الظَّاهرِ والرَّمزِ، وفي السِّياسةِ والنَّفسِ، وفي المُجتمعِ والفَرد. والغايةُ من ذلك بناءُ وعيٍ رساليٍّ قادر على التَّمييزِ، يُسهمُ في الوقايةِ من التَّخذيلِ، ويُؤسِّسُ لمُجتمعٍ يُقاوِمُ التَّحدِّياتِ الدّاخليّةَ، قبلَ أن يُواجِهَ التَّحدِّياتِ الخارجيّةَ.

الفصل الأول:

المُعوِّقُ في الرُّؤيةِ القُرآنيِّة - من الظّاهرِ إلى الرَّمز

■ المبحث الأول: «ع-و-ق» في اللُّغة والقرآنِ – الجَذرُ الذي يَكشِفُ الوَظيفةَ

قبلَ أن نتتبَّعَ حضورَ المُعوِّقينَ في السِّياقاتِ القُرآنيّة التّاريخيّة، أو نَستخرِجَ رُموزَهُم الخَفيّةَ في البنيةِ النَّصيّة، نقفُ أوَّلاً على العَتبةِ اللُّغويّة التأسيسيّة، التي يَنطلقُ منها المُصطلَحُ، وهي جذر «ع-و-ق». فالنَّصُّ القُرآنيُّ – في دِقّته المُعجَميّة –يَبني الدَّلالةَ من خلال اختيار الجَذر، وتَحديد الوزن، وتَوظيف السِّياق، وتَركيب العَلاقة بينَ الكلمة ووَظيفتها الدَّلاليّة والنَّفسيّة والاجتماعيّة. وهكذا، يُصبحُ تحليلُ الجَذر مِفتاحًا لفَهم المُعوِّقينَ، بوصفه هويّةً وظيفيّةً في مَجرى الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطل، وليسَ مُجَرَّدَ لَقَبٍ.

أولًا: الجذرُ (ع-و-ق) في المَعاجِم العربيّة - من العَرَج إلى الحَيلولة

عندَ مُراجعة أمَّهات المَعاجم، نجدُ أنَّ جذر «ع-و-ق» يَدورُ في فَلَكِ المَنعِ والتأخيرِ والعَرقلةِ والحَيلولةِ دونَ غَرَضٍ مَقصودٍ. ففي «لسان العرب»:

«عاقَهُ عن الشَّيءِ يَعوقُه عَوْقًا وعِياقًا: صرَفَه، ومَنَعَه. يقال: عاقَه يَعوقُه إذا حبَسَهُ ووَقَفَهُ»[١].

وهذا المَعنى يتَّسِعُ دَلاليًّا ليَشملَ، إضافةً الى المَنعِ الجَسديِّ أو الماديِّ، كلَّ أشكالِ العَرقلة، سواء كانَت نفسيّةً أو مَعرفيّةً أو اجتماعيّةً. ومن هنا، يَصيرُ «المُعوِّقُ» في أصل اللُّغة هو مَن يَقِفُ في وَجهِ المَسيرِ، لا لسببٍ قَهريٍّ، بل بفعلٍ مَقصودٍ ونيّةٍ مُتواطئة أو مَوقفٍ مَرسومٍ.

واللاّفتُ أنَّ هذا الجَذرَ يتلوَّنُ بحسبِ السِّياق. فقد يُستخدمُ في موضعِ الحَذرِ الإيجابيِّ - كما في: "عاقَه عن أمرٍ فيه ضَرَرٌ" - ولكنَّه في الغالبِ يأتي في القرآن دالًّا على مواقفَ مَرَضيّةٍ تَهدِفُ إلى كبحِ المَسيرةِ الإيمانيّة، التي هي مَحطُّ الدراسة والتَّحليل هنا.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الجذر (ع و ق) تُستَعمَلُ منه ثلاثةُ أبنيةٍ فعليّةٍ بمعنًى واحد، مع ما بينَها من المُبالغة والتأكيد، فيُقالُ: عاقَهُ عن كذا، إذا كانَت العَرقلةُ خَفيفةً ومحدودةَ التأثيرِ، فإذا عَظُمَتْ واشتَدَّت قيلَ:

---

١ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، ج١٠، ص٢٤٩، باب العين.

أعاقَهُ، فإذا بلغَتِ المُنتهى قيلَ: عَوَّقَهُ، وبناءً على ذلك هناكَ فرقٌ في درجاتِ الإعاقة الجَسَديّة مثلاً في المفعولِ بحسبِ الفعلِ الدّالِّ عليها، فالمَعوقُ مثلاً هو الشَّخصُ الذي يُعاني من خَلَلٍ جَسديٍّ جُزئيٍّ يَعوقُه عن ممارسةِ كلِّ الأعمالِ التي يستطيعُها الصَّحيحُ، لكنَّه يَستطيعُ القِيام بالضَّروريّات بصورة منقوصة. وأمّا المُعاقُ فإعاقتُه مُتوسِّطةٌ أو كبيرةٌ، وتمَنعُهُ من القيامِ ببعضِ الضَّروريّات، وأمّا المُعَوَّقُ فإعاقتُه بالغةٌ، ويُعاني من علَلٍ مُركَّبة، فيكون في أعلى درجاتِ الإعاقة.

والأمرُ ذاتُهُ يَنطبقُ على الفاعلِ، فالعائقُ الذي يتسبَّبُ للشَّخصِ بإعاقةٍ خفيفة، والمُعيقُ الذي يتسبَّبُ بإعاقةٍ متوسِّطة أو كبيرة، والمُعوِّقُ الذي يتسبَّبُ بأعلى درجاتِ الإعاقة، ومن هنا نفهمُ دِقّةَ القُرآنِ الكَريمِ في استِعمالِ لفظِ "المُعوِّقِ" على اعتبارِ أنَّه يتسبَّبُ بضررٍ كبيرٍ وأذًى شَديدٍ.

ثانيًا: حضور «المُعوِّقينَ» في القرآن – بينَ الصِّفةِ والسِّياق

وَرَدَ لفظُ «المُعوِّقينَ» في مَوضِعٍ واحدٍ من القرآنِ الكريمِ، في سورة الأحزاب، وهو قول الله تعالى:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

﴿ٱلْمَوْتُ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].

ووَرَد مُرادِفُه، وهو فعلُ التَّثبيطِ، في موضِعٍ واحدٍ أيضًا، في سورةِ التَّوبة، وهو قول الله -تعالى-:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧].

وفي المَوضعَينِ صُوِّرَ المُعَوِّقُ على أنَّهُ لا يَكتَفي بالتَّنحِّي جانبًا، والتَّقاعُسِ عن نُصرةِ الدِّينِ، بل يَتجاوزُ ذلك إلى تَفتيتِ الصَّفِّ من الدّاخِلِ، وعَرقلةِ المَسيرةِ الإيمانيّة، ومحاولةِ قلبِ النَّجاحات إلى انتكاساتٍ، فهو يَحملُ طاقةً مُعاكسةً للمَسيرِ، ويُلقي الكلماتِ المُوهِنةَ للعَزائمِ، ويُشيعُ التردُّدَ، ويَبني خِطابًا باطنيًّا ظاهِرُه النُّصحُ، وغايتُه الشَّلَلُ، دونَ أن يَحملَ سِلاحًا، أو يَجهرَ بعَداءٍ.

ففي سُورةِ التَّوبةِ، يَرتبطُ التَّعويقُ بـ«الفتنة»، والفتنةُ هنا البَلبلةُ العامّةُ التي تُربكُ التَّماسُكَ، وتُنتِجُ قابليّةً للسُّقوطِ. أمّا في سورةِ الأحزابِ فإنَّ المُعوِّقَ هو مَن يُثبِّطُ الجَبهةَ الدّاخليّةَ، ويَدعو إلى الانسحابِ، ويَتظاهَرُ بالخوفِ على الآخَرينَ، وهو في الحَقيقةِ يُريدُ جَرَّهُم إلى الخذلانِ.

وبهذا، يمُكِنُ القَولُ إنَّ المُعوِّقَ هو نقطةُ توتُّرٍ نَشِطة داخلَ الجَسدِ الجَماعيِّ للأمّة، يَعملُ كالمُثبِّطِ في الدّاراتِ الكهربائيّة: لا يَقطعُ التيّارَ تمَامًا، لكنَّهُ يُضعِّفُه، ويُشوِّشُه، ويمَنعُ فعاليّتَه من الوُصولِ إلى غايتِها.

ثالثًا: الفرقُ بين "المُعوِّق" و"المُتخلِّف"

هذه النُّقطةُ دَقيقةٌ وجوهريّةٌ. فـ"المُتخلِّفُ" هو مَن بقيَ خارجَ المَسيرةِ، لكونه جَبانًا، أو ضَعيفًا، أو مُتردِّدًا، لكنَّه في الغالبِ مُنعزلٌ، وليسَ له تأثيرٌ في غَيرِه. أمَّا "المُعوِّقُ"، فهو المُندَسُّ داخلَ الصَّفِّ، الذي يَتحرَّكُ بخطابٍ مُزدوَجٍ، ويُمارِسُ فِعلَه داخلَ الأجسامِ العاملةِ، لا خارجَها.

وهذا ما يَجعلُ خطرَهُ أعظَمَ؛ لأنَّ فِعلَهُ يَتمُّ تحتَ غِطاءِ الإيمانِ أو النَّصيحةِ أو العَقلانيّة، لذا فإنَّ القرآنَ في سورة الأحزابِ فصلَ بينَ "المُعوِّقينَ" و"المُتقاعسينَ"؛ فالمُعوِّقُ يَقول: "هَلُمَّ إلينا"، أي يُنادي الآخَرينَ ليَتركوا مَواقِعَهُم، ويَنحَرفوا عن واجبِهم، فهو مُتقاعِسٌ عن الواجبِ، وناشِطٌ في الدَّعوةِ إلى الارتِدادِ والانتِكاسِ والقُعودِ.

رابعًا: المُعوِّقُ في الرُّؤيةِ القُرآنيّة

إنَّ أخطرَ ما يمُكِنُ أن نقعَ فيه عندَ قراءة «المُعوِّقينَ» في القرآنِ هو أن نَختزِلَهُم في أشخاصٍ تاريخيِّينَ مَرُّوا وانتهَوا، أو في أفرادٍ مُنحرِفينَ

عن الصِّراط. فالقرآنُ، في عُمقه البنائيِّ، لا يُركِّزُ على الأسماء بل على الوَظائف: فالمُعوِّقُ هو وظيفةٌ داخلَ كلِّ مُجتمعٍ إيمانيٍّ، تَظهرُ عندَ كلِّ أزمةٍ، وتتَّخذُ أشكالاً مُختلفةً بحسبِ العَصرِ والظَّرف.

فقد يكونُ المُعوِّقُ في زمنِ مُوسى هو القَائلُ: "إنّا لَمُدرَكونَ"، وفي زمن محمد ﷺ هو مَن قالَ: "هَلُمَّ إلينا". أمّا في زماننا فقد يتحدَّثُ بلغة: "لا داعيَ للمُواجَهة"، أو "عَلينا أن نَنتظرَ الظُّروفَ المُناسبةَ"، أو "الدِّينُ لا عَلاقةَ له بالواقعِ السِّياسيّ". تتغيّر الأقوال، لكنَّ الوَظيفةَ ثابتةٌ وتَصبُّ في: تَعويقِ المَسيرةِ، وبثِّ الشَّكِّ، وتَقويضِ الإرادةِ.

خامسًا: الحاجة إلى الوَعي الوَظيفيِّ - من التَّنميطِ إلى التَّشخيص

إذا فَهِمْنا «المُعوِّقَ» باعتباره وظيفةً، فإنَّ مُهمَّتَنا لن تَنحصرَ في تَعيينِ الأفرادِ، وإنَّما ستتوجَّهُ إلى تَشخيصِ الأنماطِ، وتَفكيكِ الآليّات، وفَهمِ الخِطاب. وهذا ما يَسعى إليه هذا الكتابُ بالانتقالِ من وَصفِ الظّاهرةِ إلى قراءةِ بنيتِها، ومن تَسميةِ الأسماءِ إلى كَشفِ الطَّبقاتِ النَّفسيّةِ والرَّمزيّةِ التي تتحرَّكُ تحتَها. فالمُعوِّقُ في القرآنِ هو حضورٌ دائمٌ داخلَ النَّفسِ والمُجتمع، وهو ما يَستدعي بناءَ جهازٍ مَعرفيٍّ-تربويٍّ يَرصُدُ هذه الظّاهرةَ، ويُفكِّكُ خِطابَها، ويُحصِّنُ الصَّفَّ منها، عَبرَ الكَشفِ والرُّدودِ وبناءِ الثِّقةِ والوَعي والبَصيرة.

■ المبحث الثاني: المُعوِّقُ بوصفه ظاهرةً سلوكيّةً داخليّة

حينَ نتأمَّلُ حضورَ «المُعوِّقينَ»، في الخِطابِ القرآنيِّ، نُدركُ أنَّنا أمامَ بنيةٍ سُلوكيّةٍ تَنمو في عُمقِ الكيانِ الجَمعيِّ، وتتغذَّى من روافدَ نَفسيّةٍ واجتماعيّةٍ مُعقَّدة. وهذه البنيةُ تتجاوزُ رُدودَ الأفعالِ إلى رُؤيةٍ مُشوَّشةٍ للعالَمِ، ومَوقفٍ مُضطربٍ تُجاهَ التَّكليفِ، وخَللٍ في الاندماجِ الصّادقِ معَ المسارِ الإيمانيِّ. فالمُعوِّقُ ليس بالضَّرورةِ مَن أعلَنَ انحرافَه أو باحَ بعَداوتِه، وإنَّما قد يكونُ ذلكَ الذي يَعيشُ داخلَ الصَّفِّ، ويُظهرَ شعائرَ الانتماءِ، ثم يتحوَّلُ مع الوَقتِ إلى مصدرٍ خَفيٍّ للفَرملةِ والإنهاكِ.

تَقومُ هذه الظّاهرةُ على عناصرَ مُترابطةٍ. أوَّلُها التَّثبيطُ؛ ذلكَ الصَّوتُ الخَفيضُ الذي يُرافِقُ الحراكَ الرِّساليَّ من داخلِه، فيُضعفُ العَزائمَ، ويُهَوِّنُ التَّحدِّياتِ الكبرى حتى تُختزَلَ الرِّسالةُ إلى مُجرَّدِ طُقوسٍ أو انطباعاتٍ. والتَّثبيطُ، في جَوهرِه، لا يَحتاجُ إلى صُراخٍ أو مُواجَهاتٍ مُباشرةٍ، وإنَّما يُمارسُ تأثيرَه عبرَ التَّلويحِ الدّائمِ بفِكرةِ "الاستحالةِ"، أو "عدمِ الجَدوى"، أو "الخوفِ من العَواقبِ". وهو ما نُلاحظُه في الآياتِ التي تَصِفُ المُعوِّقينَ وهم يَثنونَ عَزائمَ المُجاهدينَ بكلماتٍ حَذِرةٍ، ظاهرُها الشَّفقةُ، وباطنُها التَّراجُع:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وإلى جانب التَّثبيط، ثمّةَ سُلوكٌ آخَرُ هو زَرعُ الشَّكِّ، وتَغذيةُ التَّردُّد. فالمُعوِّقُ يَميلُ إلى إغراق المَسيرة الرِّساليّة في الأسئلة المُنهكة، والأساليب المُربكة. ولا يُعارِضُ الطَّريقَ بشكلٍ صَريحٍ، وإنَّما يَفتحُ أبوابًا خلفيّةً للانسحاب البَطيء، فيَتحدَّثُ عن بَدائلَ آمِنة، أو حلولٍ وَسطيّة، أو صِيَغٍ "عقلانيّة" تتجاوزُ ما يُسمِّيه هو "الاندفاعَ غيرَ المَحسوب". وعلى هذا النَّحوِ يتحوَّلُ التَّعويقُ من موقفٍ فرديٍّ إلى شبكةٍ شُعوريّةٍ جماعيّةٍ تتفكَّكُ تحتَ وطأةِ التَّردُّد، ويَضيع معَها وضوحُ الاتِّجاه.

واللَّافتُ أنَّ القرآنَ يُركِّزُ على العلاقة الوثيقة بين التَّثبيط والشَّكِّ، ويَربطُ بينَهما وبينَ نمطٍ نفسيٍّ أكثرَ خفاءً هو: الحسدُ الكامنُ تُجاهَ الحركة الإيمانيّة. فالمُعوِّقُ في كثير من السِّياقات يَظهَرُ جبانًا أو مُشوَّشًا، وفي الوقت ذاته قد يَحملُ نزعةً دَفينةً للعَداء؛ فيُعارضُ الجهادَ؛ لأنَّه يَرى أنَّ نجاحَهُ يُهدِّدُ مَصالحَه، أو يَكشفُ زيفَ انتمائه، أو يُزيلُ امتيازًا كان يتمتَّعُ به في ظلِّ السُّكون العامِّ. وهذه النَّزعةُ الحاسدةُ تتجلَّى مَثلاً في قول المُنافقينَ في سورة التَّوبة:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]

فهُم يَشعرونَ بالشَّماتة عندَ أيِّ نكسة تُصيبُ الدَّعوةَ ورِجالَها، ويُخفونَ فَرحًا مُشوَّهًا حينَ تتعثَّرُ المَسيرةُ.

ومن السُّلوكيّات البارزة، التي تكشفُ وجهَ المُعوِّق، المُراوَغةُ الكلاميّةُ التي تُغلِّفُ نَوايا التَّحلِّي برداءِ النَّصيحة. فهم يَدعونَ إلى "الواقعيّة"، ويُريدونَ التَّراجُعَ، ويتحدَّثونَ عن "المَصلحة العامّة"، ويَنسحبونَ من المَسؤوليّة، ويُظهرونَ التعقُّلَ، وهُم في الحقيقة يَستبطِنُونَ الخوفَ والفرارَ. وهذا الازدواجُ في المَوقف هو ما يَجعلُ المُعوِّقَ أكثرَ تَعقيدًا من العدوِّ الصَّريح؛ لأنَّهُ يَنخرُ من الدّاخل، مُستفيدًا من قابليّة بعضِ النُّفوسِ للاستماعِ والتأثُّر، على حين أنَّ العَدوَّ الصَّريحَ عَداوتُه ظاهرةٌ، ويمُكنُ مُواجَهتُه بمُقاومةٍ مُباشرة.

وما يَزيدُ تَعقيدَ هذه الظّاهرة أنَّ المُعوِّقَ غالبًا ما يُبرِّرُ سُلوكَه بأعذارٍ مَشروعةٍ ظاهريًّا: كالمَرض، والحاجة، والخوف على الأهل، وضيقِ ذاتِ اليَد، وعدمِ الاستعداد... وكلُّها تَرِدُ في النصِّ القرآنيِّ ضمنَ توصيفٍ دَقيقٍ لهذه الفئة، كما في الآية:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]

لكنَّ الوحيَ يَفضحُ باطنَهُم قائلاً: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]، أي إنَّهُم يَزعمونَ أنَّهم يَهربونَ من الفتنة، ويَخشَونَ الوُقوعَ فيها، والحَقيقةُ أنَّهُم غَرِقُوا في أعمق صُوَرِها، وهي فتنةُ النِّفاقِ والانفصالِ عن المَشروعِ الإلهيِّ.

هكذا، تتشكَّلُ صورةُ المُعوِّق في القرآن بوصفِها ظاهرةً سلوكيّةً مُتشابكةً، تَنتجُ عن تفاعُلٍ داخليٍّ بينَ الخوفِ، والشَّكِّ، والحَسدِ،

والارتباك بينَ المَصلحة الشَّخصيّة والتَّكليف الشَّرعيِّ. ولأنَّها تَنمو في جوف الصَّفِّ الإيمانيِّ، فهي تَحتاجُ إلى يَقظة دائمة، لفَهم الشُّروط والظُّروف التي تُنتجُها، والوسائل التي تُعالِجُها، وهو ما سنتوقَّفُ عندَه لاحقًا في البُعد التَّربويِّ والخُلُقيّ.

وفي نهاية هذا المَبحث، يمُكنُ القولُ إنَّ المُعوِّقَ في القرآن يَتجاوَزُ الصُّورةَ النَّمطيّةَ الجامدةَ، ويَظهرُ كائنًا مُتحوِّلًا، يتغيَّرُ بحسب السِّياق، ويتلوَّنُ تَبعًا للمَرحلة، لكنَّه يَحتفظُ بجَوهر ثابت يتمثَّلُ في: التَّشويش على المَسيرة من الدّاخل، والانخراط في تَعطيل الإمكان الإيمانيِّ تحتَ أي غطاءٍ مُتاحٍ.

■ المبحث الثالث: الرَّمزُ القرآنيُّ وتوصيفُ المُعوِّقينَ الخَفِيِّينَ

حينَ يَنتقلُ الخطابُ القرآنيُّ من الوصف المباشر إلى التَّوصيف الرَّمزيِّ، فإنَّه لا يُغادرُ دائرةَ التَّعيين، حتَّى يُعَمِّقَها، ويَفتحَ آفاقًا مُتعدِّدةً للفَهم. فالرَّمزُ في القرآن ليس زُخرُفًا بَيانيًّا، أو تَعبيرًا مَجازيًّا يُرادُ به التَّجميلُ أو الالتفافُ، وإنَّما هو بنيةٌ دلاليّةٌ تُوظَّفُ حينَ يكونُ الظّاهرُ وحدَهُ غيرَ كافٍ لتَوصيل الحَقيقة المُعقَّدة. وقد لجأ القرآنُ، في تصويره للمُعوِّقينَ، إلى هذا المُستوى من التَّعبير؛ لأنَّ المُعوِّقَ لا يَظهرُ دومًا في صورة العدوِّ، ولا يتكلَّمُ بلغة الانفصال، وإنَّما يَندسُّ في النَّسيجِ

الدّاخليِّ للمُجتمع الإيمانيِّ، ويتَّخذُ أشكالاً خادعةً لا تُكشَفُ بسُهولة.

لذلك نجدُ في النصِّ القرآنيِّ مَجموعةً من الرُّموزِ لا تَحملُ اسمَ "المُعوِّقينَ" صَراحةً، لكنَّها تُجسِّدُ حالاتِهم المُلتويةَ، وتجلِّياتهم الدَّقيقةَ، وتمَنحُنا أدواتٍ مَعرفيّةً لفَهمِهم خارجَ الأُطُرِ التَّقليديّةِ. وأبرَزُ هذه الرُّموزِ وأكثرُها تكرارًا: العَمى.

وهو في الأصل: ذهابُ البَصَرِ كلِّه من العَينَين مَعًا. ويُستعملُ مَجازًا في ذهاب البَصيرةِ ونَظَرِ القلبِ[1]. وقد وردَ في القُرآن الكَريم بالمعنيَين معًا، ومن أمثلة استعماله في ذهاب البَصيرة والعَقل قولُه -تعالى-: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

هذا العمى القلبي لا يَعني الجهلَ وعدمَ المَعرفة، وإنَّما يُشيرُ إلى الانغلاقِ الدّاخليِّ عن إدراكِ الحَقيقةِ حينَ تظهرُ، والمَيلِ غير المشعور به إلى رفضِ النُّورِ حينَ يُعرَضُ. وهنا تتَّضحُ الصِّلةُ العَميقةُ بينَ العَمى باعتباره رمزًا، والمُعوِّق وظيفة؛ فكلاهُما لا يَرى المَسيرةَ في أُفقِها الكاملِ، ويَستغرقُ في الحُجُب، ويَعجزُ عن تَجاوُزِ الحواسِّ والوصولِ إلى الإيمانِ الفاعل. ومن الرُّموزِ التي تكرَّرَت في توصيفِ المُعوِّقينَ: **القُعودُ**.

---

١ - المقاييس في اللغة لابن فارس ٤: ١٣٣، ومفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٨٨.

ففي كثيرٍ من الآياتِ التي تتحدَّثُ عن الجهادِ أو الحراكِ الإيمانيِّ، يُذَمُّ القُعودُ؛ لأنَّه يُعبِّرُ عن انسحابٍ داخليٍّ من دائرة الفاعليّةِ، وتَحوُّلٍ من حاملٍ للرِّسالةِ إلى مُتفرِّجٍ سلبيٍّ عليها. كما في قوله:

﴿**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨٧]، فالخَوالِفُ: جمعُ خالفةٍ، وهي المرأةُ، لأنَّها تخلُفُ زوجَها في البَيتِ عندَ غيابِه أو سَفرِه[١].

فالقُعودُ هنا لم يُذَمَّ لكونِه نوعًا من الاستراحةِ، وإنَّما لأنَّه حالةٌ وجوديّةٌ مَشلولةٌ، تكتفي بمُراقبةِ الطَّريقِ دونَ الالتحاقِ به، وتَلجأُ إلى الظِّلِّ حينَ يَشتدُّ وهجُ الدَّعوةِ. وهذا الرَّمزُ يتكامَلُ معَ صورةِ المُعوِّقينَ الذينَ يُبرِّرونَ القُعودَ بالأعذارِ الظّاهريّةِ، على حين يُخفونَ في صُدورِهم نوازعَ الانفصالِ عن المَشروعِ الرِّساليّ.

وإلى جانبِ العَمى والقُعودُ، يَظهرُ رمزٌ ثالثٌ أكثرُ إيقاعًا في المَشهدِ القرآنيِّ، وهو دَورانُ الأعينُ. وقد وردَ هذا الرَّمزُ في القُرآنِ الكريمِ دالًّا على الحَيرةِ والتَّشتُّتِ وفُقدانِ التَّركيزِ والوصولِ إلى حالةٍ نفسيّةٍ أقربَ إلى الجنونِ، وهذه الأوصافُ تَنطبقُ على المُعوِّقينَ الذينَ ذكرهُم الله -تعالى- في قوله:

﴿**فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي**

---

١ - الصحاح للجوهري ١٣٥٧/٤، مادة (خلف).

يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [التوبة: ٨٧].

فدورانُ الأعينُ هنا لا يتعلَّقُ بحركةٍ خاصّةٍ بالعَينِ المَحسوسة، وإنَّما هو رمزٌ لذهابِ العَقلِ والانهيارِ النَّفسيِّ؛ لأنَّهم يَخشَونَ أن يُصيبَهم مَكروهٌ أو جراحاتٌ أو قَتلٌ، طالَما أنَّهم بينَ الجَماعةِ التي يَنتَمونَ إليها في الظّاهرِ، ولا بدَّ أن يُصيبَهم ما يُصيبُها، ففي حالةِ الخوفِ تَخورُ قُواهم، وتتشتَّتُ أفكارُهم، وتَضيقُ نُفوسُهم، وترتَجفُ قُلوبُهم، وكلُّ هذه الحالاتِ النَّفسية، التي يَعيشُها المُعوِّقونَ، عبرَّ عنها السِّياقُ القُرآنيّ برمزٍ واحدٍ هو دَوران الأعينُ.

ومن الرموز الدّالةِ على واقعِ المُعوِّقينَ، في القُرآن الكريم، رمزُ المَرَضِ.

وهو يُستَعملُ في الأصلِ للدَّلالةِ على العِلّةِ الجَسديّة. ويُستعارُ للدَّلالةِ على الخَللِ الباطنيِّ المرتبطِ بالقَلب، الذي يتمثَّل في الزَّيغِ والانحرافِ عن الحَقِّ، والكَذبِ والحِقدِ والنِّفاق،

قال -تعالى- في وصفِ المُعوِّقينَ من المُنافقينَ:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال -تعالى- في وصفِهم أيضًا:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

فالمرضِ القَلبيِّ في الآياتِ ليسَ مرضًا عُضويًّا، ولا هو ممّا يتعلَّقُ بالجَهلِ الذي هو ضدُّ المَعرفةِ، وإنَّما هو خَلَلٌ في المَواقفِ النَّفسيّةِ، وبُعدٌ عن الصِّدقِ والثَّباتِ، وتَعبيرٌ عن حالةٍ من الانفصالِ التَّدريجيِّ عن مَنطقِ الإيمانِ، تُنتِجُ قراءةً مُشوَّهةً للواقعِ، وتُفرِغُ الوعدَ الإلهيَّ من قُوّتِه، وتَحصُرُ المَشروعَ الرِّساليَّ في حدودِ المُمكنِ الماديِّ. إنَّها حالةٌ أشبَهُ بضُمورِ الوجدانِ الإيمانيِّ؛ حيثُ لا يَعودُ القَلبُ قادرًا على الاستجابةِ للحقِّ، حتى وإنْ كان ظاهرًا.

كما يُوظِّفُ القرآنُ رمزاً بالغ الدِّقةِ في توصيفِ التَّعويقِ الخَفيِّ، هو "السَّمعُ الانتقائيُّ"، أو ما يُمكِنُ تَسميتُه بـ"النَّفاذِ الإعلاميِّ الداخليِّ". جاء في وصفِ المُعوِّقينَ:

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وهذه العبارةُ القَصيرةُ تَفضحُ إحدى أخطرِ أدواتِ المُعوِّقينَ، وهي: التَّسلُّلُ إلى الصَّفِّ الإيمانيِّ من خلالِ حناجرَ تَظُنُّ نفسَها مُحايدةً أو مُتديِّنةً أو واعيةً، لكنَّها تُردِّدُ خطابَ المُعوِّقينَ، وتَنقلُه من دونِ غَربلةٍ، فيتحوَّلُ إلى فكرٍ شائعٍ، أو خطابٍ بَديلٍ، أو تَشويشٍ دائمٍ على الاتّجاهِ.

في ضوءِ هذه الرُّموزِ وغَيرِها، يَظهرُ لنا أنَّ الخطابَ القرآنيَّ، حينَ يَتعامَلُ مع المُعوِّقينَ، فإنَّهُ يُؤسِّسُ مَنظومةً رَمزيّةً كاملةً، لفَهمِهم وتَعريةِ

حَركتهم النَّفسيّة والفكريّة. وهذا الفَهمُ الرَّمزيُّ يَفتح أمامَنا مَجالاً رَحبًا لتأمُّلِ الظّاهرةِ التَّعويقيّة في الحاضر؛ إذ إنَّ كثيراً من المُعوِّقينَ اليومَ لا يَحملونَ هذا الاسمَ، ولا يُبدونَ عَداءً صَريحًا، لكنَّهم يَعيشونَ تحتَ رُموزِ القُعود، والعَمى، ودوران الأعينُ، والمرضِ، ويَنشطونَ من خلالِ سَماعاتٍ تَنقُلُ خطابَ الخذلان وتُعيدُ إنتاجَه.

هكذا، تتحوَّلُ الرَّمزيّةُ في القرآن من أداة بلاغيّة إلى بنية تَحليليّة، تَكشفُ لنا خَريطةَ التَّعويقِ الخَفيِّ، وتُساعِدُنا في بناءِ حَساسيّة قرآنيّة قادرة على الفَرزِ، بالصِّفاتِ والإشاراتِ والطَّبائعِ. وبذلكَ، نكونُ قد أتممْنا هذا الفصلَ التَّمهيديَّ، ومَهَّدْنا لفُصولِ الكتابِ اللاّحقة، التي ستتتبَّعُ المُعوِّقينَ عبرَ مَحطاتِ النُّبوّةِ والتّاريخِ، في مسارٍ تَحليليٍّ يَدمجُ بينَ الوضوحِ الظّاهريِّ، والعُمقِ الرَّمزيِّ، والامتدادِ الواقعيّ.

الفصل الثاني:

المُعوِّقونَ في مسيرة النُّبوّاتِ - التَّسلسُل التّاريخي

■ المبحث الأول: نوح عليه السلام – السُّخريّةُ الجَماعيّةُ والإغلاقُ العَقليّ

في التّاريخ الطَّويلِ للنُّبوات، تُعدُّ تجربةُ نوحٍ عليه السلام من أوائل التَّجارب التي كشفَت ملامحَ المُعوِّقينَ في صورتهم الجَماعيّة. فنوحٌ لم يُواجِهْ مُعارضةً عسكريّةً، ولم يتعرَّض لعُدوانٍ صَريحٍ بالسَّيفِ أو السِّلاح، وإنَّما واجَهَ تيّارًا ثَقيلاً من التَّثبيطِ والتَّسخيفِ والإنكارِ الجماعيِّ، يُغلِّفُ نفسَه بلُغةِ السُّخريّة، ويُغلِقُ أبوابَ الفَهمِ، ويُعيقُ كلَّ محاولةٍ لاختراقِ الجدارِ الصَّلدِ للجُمودِ الفِكريِّ. لم يكنِ القومُ يُنكرونَ الرِّسالةَ من بابِ البُرهانِ، وإنَّما من مَوضعِ التكبُّرِ المَوروثِ والاطمئنانِ إلى العادة، فكلُّ ما أتى به نوحٌ بَدا لهم غريبًا، غريبًا بما يَكفي ليُرفَضَ دونَ تأمُّلٍ.

وقد عبَّروا عن مَوقفهم بلغةٍ تَنضحُ احتقارًا وتَجهيلاً:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

ففي هذه الجملة تتكثَّفُ قرونٌ من الاستعلاءِ الطَّبقيِّ والنَّظرةِ السَّطحيّة، التي يتحوَّلُ فيها الانتماءُ الاجتماعيُّ إلى مُبرِّرٍ كافٍ لإسقاطِ الرِّسالة. مَوقفُهم لم يَنبعْ من حوارٍ، أو احتكامٍ إلى العَقلِ والمَنطق، وإنَّما من حُكمٍ مُسبق، وبنيةٍ ذهنيّةٍ مُغلَقةٍ تَرى في كلِّ دعوةِ تَغييرٍ تَهديدًا لتراتُبيّةٍ مُريحةٍ اعتادوا عليها.

لكنَّ المُثيرَ في خطابهم أنَّه تَجاوزَ حدَّ الإنكارِ، وانتقلَ إلى مرحلةٍ أشدَّ تَعويقًا وهي السُّخريّةُ المُنظَّمةُ، التي أصبحَت استراتيجيّةَ مُقاومةٍ رَمزيّةٍ. فعندَما شرعَ نوحٌ في بناء السَّفينة، حاصرَتْه الألسنةُ اللاّهيةُ، وهي لا تَسعى إلى النِّقاشِ والفَهمِ، وإنَّما لتُحيلَه إلى موضوعِ تندُّرٍ وسُخريّةٍ. قال الله -تعالى- عنهم: ﴿**وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ**﴾ [هود: ٣٨].

السُّخريّةُ هنا تَجاوزَت الرَّفضَ والإنكارَ، وانتقلَت إلى مُحاولةِ قَتلِ المَعنى، وإسقاطِ القَداسةِ عن المَشروعِ النبويِّ، عبرَ تَصويرِه على أنَّه عملٌ عبثيٌّ. السَّفينةُ، في أذهانِهم، لم تكنْ إلا خشبًا على اليابسة، وبهذا المَنظورِ السَّطحيِّ، غابَ عنهم أنَّ ما يُبنى هو أفقٌ جديدٌ، لا وسيلةُ نجاةٍ فقط.

السُّخريّةُ بهذا المَعنى تمُثِّلُ أداةَ تَعويقٍ رَمزيّةٍ، تَستهدفُ تَحطيمَ الرُّموزِ قبلَ أن تكتملَ، وتَسعى إلى نزعِ الهَيبةِ عن المَشاريعِ الكُبرى برَبطِها بالعَبَثِ وانعدامِ المعقوليّة. فحينَ يَسخرُ قومٌ من نبيٍّ يَصنعُ سفينةً وسطَ اليابسة، فهم يَبتعدون عن الحُجج والمَنطق، ويُحاولونَ تَحطيمَ الصُّورةِ النَّبويّةِ أمامَ العُقولِ البَسيطة، وتَشويشَ الوَعي الجَماعيِّ، وسَحبَ المَعنى من الفِعلِ حتى يَفقِدَ النّاسُ القُدرةَ على التَّمييزِ بينَ الجدِّيّةِ والعَبث.

وبجانبِ السُّخريّةِ، تَشكَّلَت بنيةٌ عقليّةٌ مُغلَقةٌ حولَ المَشروعِ

الرِّساليِّ. هذه البنيةُ تتحدَّثُ بثقة مُطلَقة، وتَرفضُ كلَّ ما يَتجاوَزُ خبرتَها المَحدودةَ، وتُغلقُ البابَ أمامَ أيِّ إمكانيّة للتَّغير. وفي خطابهم:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

يَكمنُ عنادٌ يتغذَّى من الغُرور، ومِن قناعة زائفة بالاكتفاء الذّاتيِّ. فبدلَ أن تَفتحَ الجِدالاتُ بابًا للتَّفكير، تَحوَّلَت إلى حائط صَدٍّ؛ كلَّما طرقَه نوحٌ بالحُجّة ازدادوا تَصلُّبًا ومَللاً، وكأنَّهم يُريدونَ للمَعرفة أن تُختصَرَ في العادة، وللحقِّ أن يَنحصرَ فيما عَرفوهُ مُسبقًا.

وقد كشفَ ردُّ نوحٍ عن عُمق وَعيه بهذه البنية المُغلَقة، إذ لم يَنجَرَّ إلى التَّبرير أو الدِّفاع الطَّويل، بل واجهَهُم بإعلان مفصليٍّ في مَعركة الحَقيقة والخذلان:

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

ورَدُّهُ كانَ بعيدًا عن التَّهكُّم والنُّزول إلى مستواهُم العَبثيِّ، وأخذَ شكلَ إعلان عن قَلب المَوازين: فما يَبدو لهم عَبثًا هو عَينُ الحكمة، وما يَسخرونَ منه سيَغدو بعدَ قليل مَوضعَ ندم ونداء واستغاثة. السُّخريَّةُ المُتعاليةُ لم تُسقطْ مشروعَ السَّفينة، لكنَّها كشفَتْ هَشاشةَ القَوم، وأظهرَت قُدرتَهم على تحريك المُجتمع نحوَ الشَّكِّ بدلَ المُشاركة.

في هذا المَبحث، نَرى أنَّ المُعوِّقينَ في زمن نوحٍ ظَهروا بوصفهم مجتمعًا ساخرًا، لا يَرى أبعَدَ من أنفه، ولا يَستوعبُ مَشروعًا إلا إذا

انطبقَ على مَنطقه الكَسول. لم يتقدَّمُوا بسؤالٍ حَقيقيٍّ، واكتفَوا بالتندُّر، وتَعامَلوا مع الرِّسالة كما يَتعامَلُ المُشاهدونَ مع عرضٍ غَريب. وقد مثَّلَ هؤلاء أوَّلَ نمَطٍ تَعويقيٍّ جَماعيٍّ يَظهر في التّاريخ النَّبويِّ، وهو النَّمطُ الذي يَعتمدُ على قتلِ المَعنى من خلال السُّخريّة، وإعادة تَعريف الجدِّيّة على مَقاسِ العادة، واستبدال الفَهم بالاستهزاء الجَماعيِّ المُنظَّم.

إنَّنا أمامَ نَموذجٍ لم يَفعَلْ شَيئًا يُدوِّي، لكنَّه فعلَ كلَّ ما يَلزمُ لعَرقلة مَسيرة الرِّسالة: من تَبخيس القُدوة، إلى تَحويل السَّفينة إلى مَهزلة، وإلى نشر خطاب القَناعة العَمياء والعَدَميّة المُتغطرسة. وهو ما يَجعل من قَومِ نوحٍ أوَّلَ مُعوِّقٍ رَمزيٍّ جَماعيٍّ، يمُارسُ العَرقلةَ بالضِّحكة والتَّندُّر، لا بالسَّيف والخنجر، ويَهدمُ الجسورَ بالفِكرة المُغلَقة واللِّسان السّاخر، لا باليَد والمَعاول.

■ المبحث الثاني: إبراهيم عليه السلام - تَعويقُ القُربى والدِّين الوِراثيّ

في سيرة إبراهيمَ عليه السلام، تتجلَّى واحدةٌ من أقدَم صُوَر التَّعويق الدّاخليِّ وهي: المُمانَعةُ التي تأتي من جهة القَرابة والنَّسَب، مُتلفِّعةً برِداء الدِّين المَوروث. فالمُعوِّقُ هنا يَنبعثُ من قلب الصِّلة الدَّمويّة، ويتحدَّثُ بلُغة الأُبوّة، ويَتَّكِئُ على تقاليد الآباء، ويَستنفِرُ الذّاكرةَ الجَماعيّةَ للحِفاظ

على الأصنام بوَصفها رُموزًا للهويّة، لا بَوصفها مَنحوتات جامدةً.

والنَّموذجُ الأبرزُ لهذا النَّوع من المُعوِّقينَ، الذي لا يَتموضعُ في السّاحة المُقابلة، ولا يَصطفُّ خارجَ العائلة، يتمثَّلُ في شخصيّة آزرَ، أب إبراهيمَ، الذي مثَّلَ حجرَ عَثرةٍ في طريق التَّوحيد، حينَ تصدَّى للابن بسُلطة النَّسب، وأعادَ تعريفَ الوَلاء على أساس العائلة لا العَقيدة، ولم تكنْ مُعارضتُه انفعاليّةً أو صِدامًا عابرًا، بقدر ما كانَ موقفًا راسخًا، وقَناعةً ثابتةً، وقد حفظَ إبراهيمُ حقَّ الأبوّة، وقابَلَهُ بكلِّ الاحترام، وخاطبَه بمُنتهى الرِّقة: ﴿**يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا**﴾ [مريم: ٤٢].

ورُغم اللِّين والتَّودُّد، اللَّذين أبداهُما إبراهيمُ في الخِطاب، ظلَّ آزَرُ مُتمسِّكًا بالمَوروث، الذي يُشكِّلُ في نظَرِه حَقيقةً راسخةً لا تَقبَلُ المُراجَعةَ. وحينَ أحسَّ أنَّ خطابَ إبراهيمَ يُهدِّدُ السَّكينةَ التي يمَنَحُها له الاعتيادُ، أشهرَ سلاحَهُ الرَّمزيَّ قائلًا: ﴿**لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا**﴾ [مريم: ٤٦].

وبذلك تحوَّلَ الحِوارُ إلى طردٍ، والرَّغبةُ في الفَهم إلى وَعيدٍ، وبرزَ المُعوِّقُ من داخلِ الأسرة بوَصفِه صاحبَ مَوقفٍ رافضٍ لأيِّ اهتزازٍ في بنية المُعتقَد السّائد.

لكنَّ دائرةَ التَّعويق في زمن إبراهيمَ تَجاوزَتْ حدودَ الأب، وامتدَّتْ إلى المُجتمعِ الأوسَعِ، فتحوَّلَتِ الآلهةُ المَوروثةُ إلى مُقدَّساتٍ مُحصَّنةٍ

ضدَّ المُساءَلة. وتجلَّى هذا الانغلاقُ حينَ حطَّمَ إبراهيمُ الأصنامَ، وتركَ الفأسَ على كبيرِهم، في دعوةٍ رَمزيّة لقراءة الحَدَث بعُيونٍ جَديدة. ولكنَّ ذلكَ لم يُجدِ نَفعًا، إذ استمرُّوا في إغلاقِ عقولِهم، وأحجَموا عن إعادة التَّفكير، وأعادُوا إنتاجَ المَنطقِ القَديمِ ذاتِه: ﴿**قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥٥].

وهذه العِبارةُ تكشفُ مُفارقةً عَميقةً؛ إذ يَرى المُجتمعُ أنَّ تدميرَ الأصنامِ سلوكٌ عَبثيٌّ، بعيدٌ عن الإصلاحِ، ويَضعُ الخطابَ التَّوحيديَّ في خانةِ اللَّهوِ والمُمازحة؛ لأنَّ الفِكرةَ التي لا تُشبِهُ العادةَ تَبدو لهم خَفيفةً، وتَفتقِرُ إلى الجدِّية.

وعندَ لحظةِ المُواجَهة، قرَّروا أن يُسكتُوا صوتَ إبراهيمَ بالقَتلِ والحَرق، بعد أن عَجزوا عن إسكاته بالحِوارِ والحجّة: ﴿**قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ٦٨].

هنا يَصِلُ التَّعويقُ إلى مَداهُ الأعنف، حينَ تُستدعى الجماعةُ كاملةً للدِّفاعِ عن السُّكونِ وثَباتِ العادة، بعدَ أن تحوَّلَ الإصلاحُ إلى تَهديدٍ يَنبغي اجتثاثُه. وهذا الفعلُ يَحملُ بالتَّأكيدِ طابعًا انتقاميًّا، ويَعكسُ خَوفًا جَمْعيًّا من زَعزعةِ التَّوازُنِ القائم، حتَّى لو كانَ ذلكَ التَّوازُنُ مَبنيًّا على الخُرافةِ والتَّقليد.

تَعويقُ الدَّعوةِ في تَجربةِ إبراهيمَ يَظهرُ في قالبَينِ مُتداخلَين: سلطةِ القَرابةِ التي تُقيِّدُ الانتماءَ الحُرَّ، وسُلطةِ الجَماعةِ التي تُفرِغُ التَّفكيرَ من

مَعناهُ، وتُحاصِرُ الخِطابَ الجَديدَ بشُبهةِ الخُروجِ على الإجماعِ. وفي كلا القالبَين، يُلوِّحُ المُعوِّقُ بالمَصلحةِ والاستقرارِ، لكنَّه يُخفي تحتَ ذلكَ رَغبةً دَفينةً في بقاءِ الامتيازاتِ القائمةِ على الانتماءِ لا على الحقِّ.

فالتَّجديدُ، حينَ يُطِلُّ برأسِه، يُوقِظُ كلَّ القُوى المُتَّكِئةَ على الذّاكرةِ الجَمْعيّةِ، ويَستفزُّ الهويّاتِ التي بُنيَت على تَراكُمِ العاداتِ، ولهذا فإنَّ المُعوِّقينَ في عصرِ إبراهيمَ كانوا حُماةَ المَعبَدِ، كما كانوا أركانَ النِّظامِ ودعائمَه. والرسالةُ، في لحظةِ انبثاقِها، تَصطدِمُ قبلَ اصطدامِها بالسَّيفِ بعَقلٍ رافضٍ للسُّؤالِ، يَتظاهَرُ بالحِكمةِ، ويَخشى افتضاحَ هَشاشتِه أمامَ نورِ الفِطرةِ.

ما يَظهَرُ في تَجربةِ إبراهيمَ هو أنَّ أخطرَ التَّعويقِ لا يَنبعِثُ من العَداءِ المُعلَنِ، وإنَّما يتسرَّبُ من العَلاقاتِ الأليفةِ، ويَختبِئُ في المَناطقِ التي يُفترَضُ أن تكونَ مَأمونةً. وهذا النَّمطُ من المُعوِّقينَ – حينَ يتكرَّرُ في أيِّ عَصرٍ – يُعيدُ إنتاجَ آزَرَ كمَنظومةٍ: تَحمي العادةَ، وتَرفضُ التَّغييرَ، وتُدافِعُ عن الأوهامِ بوَصفِها رَكائزَ مُجتمعيّةً لا تُمَسُّ.

■ المبحث الثالث: موسى عليه السلام – التَّخذيل في مُفترَقِ التَّحرُّر

تُمثِّل قصّةُ مُوسى عليه السلام ذروةَ تداخُلِ التَّعويقِ في المُجتمعِ الرِّساليِّ؛ حيثُ يَظهرُ المُعوِّقُ في صُلبِ الأحداثِ، ويَنبثِقُ من بين الصُّفوفِ،

ويتكلَّمُ بلسان الجماعة، ويَرتدي لباسَ النَّجاة، في لحظةٍ هي الأحوَجُ إلى الحَسم والثِّقة. وهذه التَّجربةُ تَرسمُ واحدةً من أكثر لحظات الرِّسالة حَساسيّةً: لحظة مُفترَق الطَّريق بينَ الانعتاق من العُبوديّة والدُّخول في وعد التَّمكين. وفي هذا المُفترَق تَحديدًا، يَمرُّ الاختبارُ بمُوسى ومَنْ معَه، ويُكشَفُ معدنُ القوم الذينَ خرجَ بهِم من ذلِّ الاستضعاف، ليُواجهوا استحقاقات الوَعد الإلهيِّ.

عندَما وقفَ بَنو إسرائيلَ أمامَ البَحر، ووراءَهُم فرعونُ وجُنودُه، تفجَّرَت أُولى علامات التَّخذيل الجَماعيِّ: ﴿**فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء: ٦١].

هنا تَظهَرُ المُعوِّقاتُ النَّفسيّة، وتتجاوزُ حدودَ الصُّراخ والشَّغب، إلى فقدان الثِّقة في الله، واستبطان الهَزيمة قبلَ وُقوعها. وهذه العبارةُ القَصيرةُ تُعبِّرُ عن نمطٍ نفسيٍّ مألوفٍ في كلِّ الأزمنة: التَّخويف الدّاخليِّ، والشَّكِّ في الغَيب، والارتهان للمَشهد الحسيِّ. وهنا لم يكن الخَطرُ من جيشِ فرعونَ أكثرَ من ارتجافٍ داخلِ الصَّفِّ الإيمانيِّ نفسه.

لكنَّ المَشهدَ الأشدَّ تعبيراً عن وظيفة المُعوِّقينَ يأتي لاحقًا، حينَ يَقفُ مُوسى على أعتاب الأرض المُقدَّسة، ويَطلبُ من قومه الدُّخولَ إليها امتثالاً للوَعد الإلهيِّ، فيُواجهُ ردًّا صارخًا في تَعبيره، مُخذِّلاً في رُوحه: ﴿**قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤].

هذه الجُملةُ تَختزلُ قمّةَ التَّعويق؛ إذ يُلقى بالتَّكليفِ على القيادةِ وحدَها، ويُعلَنُ القُعودُ الجَماعيُّ، عَن قناعةٍ بجُمودِ الإرادةِ، مع أنَّهم يمتلكونَ أسبابَ القُوّةِ. لم يَطلبُوا مُهلةً، ولا ناقشوا خُطّةً، واكتفَوا بإعلانِ انسحابِهم، وتَركوا نَبيَّهم يُواجهُ المَصيرَ وحدَه.

وبمثلِ هذا الانسحابِ، يَتجاوزُ المُجتمعُ وظيفةَ المتُلقِّي المتُردِّدِ، ويتحوَّلُ نفسُه إلى عائقٍ أمامَ الرِّسالةِ. والذي يدعو إلى العَجَبِ والاستغرابِ أنَّ الأعداءَ بعيدونَ عن المَشهَدِ والتأثيرِ في مواقفِ الجَماعةِ، ويَصدُرُ عن أولئكَ الذينَ ذاقوا المُعجزةَ، ومَشَوا بينَ جُدرانِ الماءِ، وشاهدوا هَلاكَ فرعونَ وجنودِه، ثم يَعودونَ بعد كلِّ ذلكَ إلى مَنطقِ الانهزامِ والخوفِ، كأنَّما كانَتِ الآياتُ مُجرَّدَ وَمضاتٍ لم تمَسَّ الجُذورَ.

وسَطَ هذا المَشهدِ، يَظهرُ نموذجٌ رمزيٌّ بالغُ الخطورةِ: السّامريُّ، الذي يتحدَّثُ عنه القرآنُ بوَصفه مُندسًّا داخلَ الجسدِ الجَمعيِّ، صانعًا لبديلٍ رَمزيٍّ عن التَّوحيدِ، حينَ قال: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ [طه: ٨٨].

تتجاوز فعلة السامريّ هنا تشويشَ المَسارِ الإيمانيِّ، إلى إنتاجِ مشروعٍ مُوازٍ يَملأ الفراغَ الرُّوحيَّ الناشئَ عن غيابِ مُوسى المُؤقَّت. في رَمزيّةِ العِجلِ، تَختبئُ كلُّ أدواتِ التَّعويق: اختزالُ الإله في الصُّورةِ، وتَجسيدُ الغَيبِ في كائنٍ ماديٍّ، وتَحويلُ المَبدأ إلى طَقسٍ حِسّيٍّ.

وبذلكَ، يُعيدُ السّامريُّ تكوين الوَعي العامِّ على أسُسٍ تَهدمُ ما بَناهُ مُوسى منذُ لحظة التَّكليف.

ما فعلَه السّامريُّ كانَ مُمارسةَ تَعويق فيها دَهاءٌ وتَخطيطٌ، وليسَت مُجرَّدَ حَدث عابر عَفويٍّ، اعتمدَت على الاستغلال النَّفسيِّ للحظة الغياب، وعلى الرَّغبة الدَّفينة في الرُّجوع إلى المَلموس، وعلى القابليّة العَجيبة عندَ بعض الجَماعات لاستبدال الغيب بالذَّهب، والرِّسالة بالعِجل. وهكذا، يَظهرُ السّامريُّ بصفته معوِّقًا رمزيًّا خفيًّا، يَصرفُ القَومَ عن موسى ويُلهيهم عنه، ويَملأُ وعيَهم بالبَديل المَصنوع من أوهامهم القَديمة، فيُفسِدُ العَهدَ بينَ النّاسِ ونبيِّهم، دونَ أن يَحملَ سِلاحًا، أو يَدفعَ خَيلاً.

أمّا النَّتيجةُ، فجاءَت على مُستوى الأمّة كاملةً: التِّيهُ. أربعونَ سنةً من الدَّوران في الصَّحراء، عُقوبةً لهم على عِصيانهم، وتَطهيرًا لهم من بُنى التَّخاذُل التي أعاقَت الدُّخولَ إلى الأرض المَوعودة. لم يكن الطَّريقُ إليها طَويلاً ولا صَعبًا، ومع ذلكَ بَقيَت مُغلَقةً عليهم؛ لأنَّ النُّفوسَ التي اعتادَت العُبوديّةَ لم تكنْ مُهيَّأةً لاحتضان الحرِّية. فقد يتغيَّرُ الجسدُ، لكنَّ القلبَ إذا بَقي مُقيَّدًا، تَحوَّلَ إلى مُعوِّقٍ للمُستقبَل، مَهما عَظُمَت الآياتُ.

ومن خلال هذه التَّجربة، يتَّضحُ أنَّ أخطرَ المُعوِّقينَ لا يُكشَفونَ في لحظاتِ الرّاحة، وإنَّما يَنجلي مَعدنُهم عندَ استحقاقِ الكُلفة، وحينَ

تُطلَبُ المُبادرةُ، ويُختبرُ الصَّبرُ، ويُطلَبُ الإيمانُ بالغَيبِ لا بالتَّجربة. ومثلُ هؤلاءِ يُسقطونَ الواجبَ بالتَّسويف، ويُعطِّلونَ العَزائمَ بالتردُّد، ويُجهضونَ الحركةَ من خلال خطابٍ يَحتالُ على التَّكاليفِ ويُبرِّرُ القُعودَ.

في قصّةِ مُوسى كانَ المُعوِّقُ شبكةً مُعقَّدةً من السُّلوكيّاتِ والنَّفسيّاتِ والأصواتِ، تتضافرُ لتُنتجَ مَشروعًا مُضادًّا، يَبدو في بعضِ اللَّحظاتِ أكثرَ جاذبيّةً من طريقِ الإيمان؛ لأنَّه أسهَلُ، وأكثرُ مُلامَسةً للشَّهوةِ والخَوفِ. لكنَّ النَّتيجةَ، في كلِّ مرّةٍ، هي الحيرةُ، والتِّيهُ، وإطالةُ الطَّريقِ.

■ المبحث الرابع: عيسى ﷺ – التآمُر الدِّينيُّ والتمييع الرِّساليّ

من بينِ الرِّسالاتِ، التي حملَت نورَ التَّوحيدِ إلى المُجتمعاتِ، تمُثِّلُ رسالةُ عيسى ﷺ نموذجًا فَريدًا لتَعقيدِ المُواجهةِ؛ حيثُ يتقاطعُ المُعوِّقُ مع المُقدَّس، ويتسلَّلُ التَّخذيلُ من تحتِ عباءةِ الدِّينِ، ويَجري التَّعويقُ داخلَ البيئةِ التي يُفترَضُ أن تكونَ حاضنةً للحقِّ، ومُناصرةً له. لم يكنْ عيسى في مُواجهةٍ معَ جهلٍ صَريحٍ أو وثنيّةٍ تَقليديّةٍ، وإنَّما واجهَ نظامًا دينيًّا مَوروثًا، شديدَ التَّغلغُلِ في النُّفوسِ، يَمتلكُ سلطةَ التأويلِ، ويدَّعي صيانةَ الشَّريعةِ، ويَحتكرُ الحديثَ باسمِ الله، لكنَّه في جوهرِه كان يُقاومُ التَّجديدَ، ويُحاصِرُ الوَحيَ الجديدَ، بما اختزنَه من تأويلاتٍ خاليةٍ من

الرُّوح.

المجتمعُ الذي أُرسل إليه عيسى لم يكن مُنقطعًا عن النُّبوّات، فقد نشأ في ظلِّ التَّوراة، وتربىَّ على تعاليم أنبياءِ بَني إسرائيلَ. ومعَ ذلك، ظلَّ يَحملُ في أعماقه مُمانعةً عنيدةً لكلِّ نبيٍّ يأتي بكلمةٍ تُعيد الدِّينَ إلى نَقائه. وتلكَ المُمانعةُ، حينَ أرادتْ أن تُعبرِّ عن نفسها، ارتدَت ثوبَ التَّراخي، واختبأتْ خلفَ لغةِ التَّوقيرِ الظّاهريِّ، على حين كانَت تُفرِغُ النُّبوّةَ من مُحتواها الجَذريِّ.

لم يُقدِّم القرآنُ تفاصيلَ كثيرةً عن مقاومةِ عيسى من الدّاخلِ، وإنَّما أشارَ بإشاراتٍ مُكثَّفةٍ إلى جوٍّ مَشحونٍ بالرِّيبةِ والتربُّصِ والتَّشكيك، خصوصًا في لحظاتِ الدَّعوةِ الجَهريّة، حينَ تصدَّى عيسى للسُّلطةِ الدِّينيّةِ الفاسدة، وذكَّرَهُم بأنَّ الشَّريعةَ ليسَت سلطةً زمنيّةً، ولا رُخصةً للفسادِ المُهَيكلِ باسم النَّصّ. وقد عبرَّ القرآنُ عن هذه المُواجهةِ بدعاءٍ مُوَجَّه إلى الله: ﴿**فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ**﴾ [آل عمران: ٥٢].

هذه العبارةُ تكشفُ عن شعورٍ داخليٍّ بالخذلان، وعَن لحظةِ إدراكٍ بأنَّ القومَ الذين يَحملونَ التَّوراةَ في صُدورهم يُشيحونَ بوُجوهِهم عن دعوةِ التَّوحيدِ إذا خرجَت عن المألوفِ المؤَسَّسيِّ.

المُعوِّقونَ في بيئةِ عيسى تميَّزوا بذكاءٍ مُختلف؛ فقد ابتعدوا عن السَّيفِ والمُواجهةِ الصَّريحةِ، واتَّجهوا إلى التَّلاعُبِ بالاتِّهاماتِ،

وتَحريضِ السُّلطةِ السِّياسيةِ، وتمَريرِ الرِّواياتِ المُضلِّلة، وأسهموا في تأليبِ الجوِّ العامِّ، دونَ أن يتحمَّلوا مَسؤوليّةً. هذه الفئةُ تُمثِّلُ أخطرَ أنماطِ المُعوِّقينَ في التّاريخِ النَّبويِّ: الطَّبقةُ الدِّينيّةُ المُتحالفةُ مع الجُمود، والقادرةُ على خنقِ الرِّسالةِ بأدواتٍ من داخلِ الدِّينِ ذاته.

في مُقابلِ هذا الجوِّ الضّاغطِ، سَعى عيسى لتكوينِ نَواةٍ ثابتةٍ من أتباعِه، فظَهرَ الحَواريُّونَ، وهم مَجموعةٌ صَغيرةٌ، لَكنَّها مَوصوفةٌ بالصِّدقِ والصَّفاء، على الرَّغمِ من تردُّدِها في اللَّحظاتِ الأولى. يقول -تعالى-: ﴿**...قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٥٢].

غير أنَّ تردُّدَهم يعودُ ليَظهرَ عند لحظاتِ الامتحان، كما في طلبهم المائدةَ من السَّماء: ﴿**إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ [المائدة: ١١٢].

هذا السُّؤالُ، وإنْ أتى في سياقِ الإيمان، لكنّه يَكشفُ عن آثارِ التَّعويقِ الدَّاخليِّ المُتغلغلِ حتى في نفوسِ الصَّفِّ الأوَّل: الحاجة إلى تأكيدٍ خارجيٍّ، والتعلُّق بالمَحسوس، وغياب الاطمئنانِ الكليِّ إلى الغَيب.

وتَبلغ رمزيّةُ التَّعويقِ في تجربةِ عيسى ذروتَها عندَ مَشهدِ الإرجافِ حولَ صَلْبِه. فخُصومُه لم يتمكَّنوا من النَّيلِ منه مُواجَهةً، فنَسجوا

الرِّوايات، وحرَّكوا الدَّولةَ، وأشاعوا خَبرًا زائفًا تحوَّلَ عبرَ الزَّمنِ إلى يَقينٍ مُزيَّف:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

المُعوِّقُ هنا يتحرَّكُ في حقل الظِّلال: يُنتجُ شُبُهات، ويَنسجُ تَشويشًا، ويتركُ النّاسَ أمامَ ضبابٍ يَحجبُ الحقيقةَ، فيُضعفُ الثَّباتَ، ويُضيِّعُ الاتِّجاهَ.

وبهذه المُعطيات، يَظهرُ نموذجُ عيسى كمرآةٍ لنوعٍ خاصٍّ من المُعوِّقينَ: الذين يُتقِنُونَ لبسَ ثيابِ الشَّرعيّة، ويَحرصونَ على حفظ الصِّيغة، لكنَّهم يَختنقونَ أمامَ أيِّ نَفَسٍ إصلاحيٍّ يُعيد البوصلةَ إلى الأصل. هؤلاءِ لا يَصنعونَ المَعركةَ، بل يُهيِّئونَ شروطَ الإخفاقِ، ويُربكونَ اللَّحظةَ، ويُحاصرونَ النبيَّ، دون أن يَرفعوا صوتَهم في المَجالسِ. ومن خلالهم، تتجسَّدُ فكرةُ المُعوِّقِ المؤسَّسيِّ، الذي يَعيش داخلَ الجهازِ الدِّينيِّ، ويُظهرُ الولاءَ، لكنَّه يَدفعُ بالأمّةِ إلى التِّيهِ النّاعمِ، بَعيدًا عن الصِّدامِ، وأقربَ إلى الاستسلام المُقنَّعِ.

■ المبحث الخامس: النبيُّ محمَّد ﷺ - التَّعويقُ في ذروة التَّمكين

في التَّجربةِ المُحمَّديّة، يتجلَّى المُعوِّقُ في أكثرِ صُورهِ تَركيبًا وتَعقيدًا. فقد بدأتِ المواجهةُ مع جبهةِ الشِّركِ أو فُلولِ قُريش، ثمَّ امتدَّ الخطرُ

إلى داخل المجتمع الإسلاميِّ ذاته؛ حيثُ نشأ تيّارٌ مُزدوَجُ اللِّسان، يُتقِنُ أداءَ الشَّعائر، ويُظهِرُ الطّاعةَ، وفي الوقتِ ذاتِه يُسهِمُ في تَحطيمِ العَزائم، وتَشويشِ الاتِّجاه، ونَفثِ الضَّعفِ في جسدِ الجماعةِ المُؤمنة. هذا التيّارُ، الذي أطلقَ عليه القرآنُ أوصافًا دقيقةً كـ«المنافقين»، و«الذين في قلوبهم مَرضٌ»، و«المُرجِفينَ»، و«المُعوِّقينَ»، أصبَحَ ظاهرةً واسعةً استلزمَت سُوَرًا كاملةً لكَشفِها وتَحليلِها، كما في سورتيَ التَّوبةِ والأحزاب.

ظهرَ المُعوِّقُ في المدينةِ في سياقٍ مُختلفٍ عن التَّجاربِ السّابقة، بعد أن كان الدِّينُ قد تَجاوزَ طَورَ النُّشوءِ والتَّكوين، ودخلَ في طَورِ التَّمكين، وأصبحَت له دولةٌ ومُجتمع ومكانةٌ. ومع هذا التحوُّل، اتَّخَذَ التَّعويقُ وَجهًا أكثرَ مَكرًا؛ حيثُ صارَ يَختبِئُ تحتَ مظلّةِ الجَماعة، ويَستثمِرُ لَحظاتِ التوتُّرِ والانقسام، ليَبثَّ التردُّدَ والتَّشكيكَ والانكماشَ، ويَعملَ في تصميمٍ لا يَنثني على تفريغِ المَشروعِ من الدّاخلِ، وتَحويلِ لَحظاتِ الشِّدّة إلى بوّاباتٍ للانهيارِ المَعنويّ.

وأبرَزُ مَشهدٍ يَكشِفُ هذه الظّاهرةَ تَجسَّدَ في غزوةِ الأحزاب، حينَ تلاقَت جيوشُ العربِ خارجَ المَدينة، واشتدَّ الخوفُ، وانكشفَ الصَّبرُ، وأصبحَ الاضطرابُ فرصةً للمُعوِّقينَ ليُظهروا ما كانوا يُخفونَه. يقول -تعالى-: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [الأحزاب: ١٢].

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

في هذا السِّياقِ، يُطلِقُ المُعوِّقُ دعوةً مُبطَّنَةً للرُّجوعِ، تُقدَّم تحتَ ذريعةِ الواقعيّةِ والحِرصِ على النَّفسِ. «هَلُمَّ إلينا»، هذه العِبارةُ تحملُ في ظاهرِها الشَّفقةَ والنُّصحَ والمحبّةَ الصّادقةَ والحِرصَ على مَصلحةِ الجماعةِ، وتحملُ في حقيقتِها النُّكوصَ والخِذلانَ والجُبنَ، والرَّغبةَ الجامحةَ في القَضاءِ على الرِّسالةِ، وهي بما تَحملُه في باطنِها لم تَدعُ صراحةً إلى الفِرارِ من الميدانِ، وتَسليمِ المدينةِ للأحزابِ، حتّى إنَّ أصحابَها لم يَتركوا المَعركةَ، ولم يَدْعوا إلى ذلك، إنَّهُم مع الجَماعةِ في الظَّاهِرِ وضمنَ صفوفِها، على حين أنَّ قُلوبَهُم وآمالَهُم في معسكرٍ آخَرَ، تتمركزُ فيه، وتترقَّبُ أن تَحلَّ الهَزيمةُ والهَلاكُ بالمُسلمين.

وإلى جانبِ الأحزابِ، تَبرُزُ سُورةُ التَّوبةِ باعتبارِها مسرحًا مكشوفًا لظاهرةِ المُعوِّقينَ في مرحلةِ ما بعدَ التَّمكينِ. الغَزوةُ هذه المرّةَ هُجوميّةٌ، وعلى درجةٍ كبيرةٍ من الأهمِّيةِ، وصادفَ أن كانَت في الحرِّ الشَّديدِ، وتَحتاجُ إلى عددٍ وعُدّةٍ، ويتطلَّبُ الخروجُ فيها مُستوًى أعلى من التجرُّدِ والثِّقةِ. هنا تنكشفُ الأعذارُ، وتُعرَّى المَواقفُ، ويَخرُجُ التَّعويقُ في أوجُهٍ جَديدةٍ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩].

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

في هذه العبارات يتَّضحُ كيف يَعمل المُعوِّقُ على شرعنة التَّراجُع، وتَبرير التَّخلُّف، وتَحويل الفُتور إلى مَوقف شَرعيٍّ. يتحوَّلُ الانكفاءُ إلى نصيحة، ويُغلَّفُ القُعودُ بفَتوى. هذا النَّمطُ يتجنَّبُ التَّصادُمَ، ويلجأُ إلى الإقناع البارد؛ حيثُ تُمنَحُ الكلمةُ وظيفةً مُزدوجةً: ظاهرُها الحَذرُ، وباطنُها التَّعويقُ.

لكنَّ الأشدَّ دقّةً في توصيف هؤلاءِ هو قوله -تعالى-: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٧].

فهنا يَتبيَّنُ أنَّ المُعوِّقَ يَنفذُ إلى تحقيق أهدافه من خلال آذان داخلَ الصَّفِّ، آذان تتلقَّى منه، وتُعيدُ تَوزيعَ خطابه، دونَ وعي أو عن سابق قَصد. وهكذا، تُصبحُ الجماعةُ المُؤمنةُ نفسُها مُعرَّضةً للاختراق، عبرَ مُعوِّقينَ قابعينَ داخلَ الجماعة، يَبثُّونَ سُمومًا، تلقى مَن يتلقَّفُها بالقَبول.

التَّجربةُ المُحمَّديّةُ أظهرَت أيضًا أنَّ المُعوِّقَ قد يتحوَّلُ إلى صانع للرِّوايات، وناشر للإرجاف، ومُروِّج للأكاذيب تحتَ غطاء التَّساؤُل والتَّأويل. وهنا يتجلَّى أحدُ وجوه التَّعويق الأكثر خطرًا، حينَ يُستبدلُ الوحيُ بشكوك مُلفَّقة، ويُدَسُّ في الوعي الجَماعيِّ خطابٌ مُشكِّكٌ، يَنتشر بصيغة استفسارات مُريبة، وتَساؤلات تُلقي بظلال الشَّكِّ، دونَ أن تَنطِقَ باتِّهام صَريح.

في ضوء هذه المُعطيات، يَظهر المُعوِّقُ في المدينة بوصفه نموذجًا متحوّلًا، بارعًا في التلوُّن، وخبيرًا في التَّوقيت، يَنتظرُ لحظةَ التوتُّر،

ليَبثَّ الوهنَ، ويُشوِّشُ الرُّؤيةَ، ويُضعِفُ الإقدامَ، ويَحترفُ الوقوفَ في الهامشِ، مُتمسِّكًا بخطِّ الرَّجعةِ، خائفًا من التَّورُّطِ، ومُصِرًّا على إدخال الآخَرينَ في مَنطقِ التردُّد.

ونظرًا لخطورةِ هذا النَّموذجِ، نجدُ أنَّ القرآن فضحَه تَفصيلاً، وسمَّاهُ صَراحةً، وعرَّى مَنطقَه، ودَعا إلى مُواجهتِه ببَصيرةٍ يَقظةٍ، لا تَتوهُ وسطَ العَواطفِ والشُّبهات.

الفصل الثالث:

الرَّمزيّةُ القرآنيّةُ في تَوصيف المُعوِّقين

■ المبحث الأول: العَمى – انسدادُ البَصيرة وفُقدان التَّفاعل مع الحقِّ

حين يُذكر العمى في القرآن، يَرِدُ لمَعنيَين، الأول فُقدان البَصر من العَينَين مَعًا، وهو المعنى الأصلي، يُقال: عِميَ يَعمى عَمًى، فهو أَعمَى وعَم، إذا ذهب بصرُه من عَينيه كلتَيهما. والمعنى الثّاني هو ذهاب البَصيرة ونَظَر القلبِ، يُقالُ: رجلٌ أعمَى القَلبِ، وعَمِي القَلبِ، أي جاهلٌ. ويَجيء من عمَى القلب اسم التَّفضيل وفعل التعجُّب، فيُقال: هو أعمَى من كذا، ويُقال: ما أعماه، أما عَمى البصر فلا يصحّ منه ذلك لأنه لا يقبل التفاوت[1].

ومن الأمثلة على مجيء العمى في القرآن الكريم، بمعنى ذهاب البصر،

---

١ - يُنظر: المقاييس ٤: ١٣٣، واللسان ١٥: ٩٥، والتاج ٣٩: ١٠٧ مادة (عمي)، ومفردات القرآن ص٥٨٨.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢]

والأعمَى هنا: الذي لا يُبصِرُ بعَينيه.

وقد وردَ عَمى البَصرِ في عدّةِ مَواضعَ كِنايةً عن الضَّلالِ، كما في قَوله تعالى:

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]

فالأعمى كُني به عن الضّالِّ، والبَصيرُ كُني به عن المُهتَدِي، والمَعنى: هل يَستوي الضّالُّ والمُهتدي؟[١]

ومن الأمثلة على مَجيء «العَمى»، في القرآن الكريم، بمَعنى ذهابِ البَصيرة والقُوّة العاقلة، قولُه تعالى:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

فقد أسنَدَ العَمى إلى القلوبِ، وصَوَّرَه على أنَّه خَطبٌ عَظيمٌ، إلى درجةِ أنَّه لا يُقاسُ به عَمَى البَصَرِ[٢].

فالعَمى، حينَ يردُ في القرآنِ الكَريمِ، قد لا يُراد به فقدانُ البَصَرِ الحسيِّ، وإنَّما يُستدعى بوصفه صورةً رمزيّةً لانطفاءِ البَصيرةِ، وتَصلُّبِ

---

١ - يُنظر: الكشاف ٢: ٢٥.

٢ - يُنظر: مفردات القرآن ص٥٨٨.

القَلب، وعَجز الإنسان عن التَّفاعُلِ مع النُّورِ حينَ يتجلَّى. هذا العَمى يَتجاوَزُ الحَواسَّ، ويَغوصُ إلى أعماق الوجدان، فيَجعَلُ صاحبَه واقفًا أمامَ الآيات والمُعجزات دونَ أن يتحرَّكَ، ويُصِمُّ أذنَيه عن النِّداء حتى وهو يَسمعُه، ويُغلِّفُ روحَه بطبقةٍ كثيفةٍ من اللّامبالاة، كأنَّ النُّورَ لا يَخترقُه، وكأنَّ البيِّنةَ لا تَعنيه.

هذا المَعنى العَميق يتَّضحُ، كما أسلفنا، في قوله -تعالى-:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فالآيةُ تكشفُ بوضوح أنَّ العَمى، الذي يُعيقُ الإنسانَ عن رُؤيةِ الحقِّ، بل هو خَدرٌ داخليٌّ يَمنعُ القلبَ من الاستجابة، وليسَ العمَى البَصريّ.

وهنا تتَّضحُ العلاقةُ بينَ هذا الرَّمز ومَفهوم المُعوِّق، فالمُعوِّقُ، في جوهره، فاقدٌ للبَصيرة، عاجزٌ عن التقاط إشارات الغَيب، غيرُ قابلٍ للدَّهشة، مُتبلِّدٌ أمامَ الآيات. وقد لا يُنكرُ، لكنَّه لا يُبصرُ، ولا يُترجمُ النُّورَ إلى مَوقف، ويَبقى جامدًا، مُتردِّدًا، غارقًا في انكماشٍ لا يَكسرُه وضوحٌ ولا يَهزُّه إعجازٌ.

ولعلَّ النَّموذجَ الأوضحَ لهذا النَّوعِ من العَمى هو مَن شَهدوا المُعجزاتِ في زمنِ الأنبياء، ثمَّ بَقُوا في أماكنهم، لا لأنَّهم رَفضوا الحقَّ، بل لأنَّهم لم يتمكَّنوا من رُؤيته باعتباره قيمةً تَستحقُّ الاتِّباعَ، أو نداءً يَستحقُّ الاستجابةَ. هؤلاء لا يُصارعونَ الرِّسالةَ، لكنَّهم يَغرقونَ

في صَمت داخليٍّ، يَطغى عليه الخوفُ أو الشَّكُّ أو التبلُّدُ، حتى تَنتهي الرِّسالةُ، وتَبقى أعينُهم مَفتوحةً، وقلوبُهم مُغلَقةً.

في هذا الإطار، يتحوَّلُ العَمى إلى بنيةٍ وُجوديّة، تمَنعُ الحركةَ، وتُعيقُ التَّوجُّهَ، وتُبقي الإنسانَ في حالة دوران حولَ ذاته، دونَ قُدرةٍ على اجتياز حجاب العادة. ومن هنا، فإنَّ العَمى قد يُعبَّرُ به عن قصورٍ في القُدرة، ولكنَّ الغالبَ أن يُعَبَّرَ به عن انسداد البَصيرة، وغياب التَّفاعُل، عن عقلٍ لا يتأثَّرُ، ووجدانٍ لا يَهتزُّ، وخوفٍ يَلبس قناعَ التَّحفُّظ، لكنَّه في أعماقه يمُثِّلُ رَفضًا لكلِّ هزّةٍ قد تُوقظُ الوعيَ من سُباته. وهذا النَّوعُ من التَّعويق، القائمُ على انطفاء البَصيرة، من أخطر الأنواع؛ لأنَّه لا يَصطدمُ، ولا يُجادلُ، ولا يُعلنُ مَوقفًا واضحًا، في حين يَعيشُ في الهامش الرَّماديِّ؛ حيثُ تَذوبُ الحدودُ، ويتحوَّلُ الحقُّ إلى احتمال قابلٍ للتّأجيل، والمَوقفُ إلى مَشهدٍ مُؤجَّلٍ إلى إشعار آخَرَ. وبذلكَ يُصبحُ هذا الإنسانُ عنصرًا مُعوِّقًا من حيثُ لا يَشعر، يُثبِّطُ الآخَرينَ بصَمته، ويَنقلُ العَدوى الوجدانيّةَ من خلال الفُتور، ويُحدِثُ فَراغًا في الصَّفِّ، كأنَّ غيابَه حاضرٌ، وحُضورُه غائبٌ.

■ المبحث الثاني: القُعود - رمزُ التخلُّف الإراديِّ وتجميدِ الفاعليّة

حينَ يتحدَّثُ القرآنُ الكريمُ عن القُعودِ، في سياق المَعارك الكُبرى

للرِّسالة، لا يَقفُ عندَ توصيف حَركيٍّ لفعلٍ جَسَديّ، بل يَكشفُ عن بُنيةٍ رمزيّةٍ تُعبِّرُ عن نمطٍ نفسيٍّ واجتماعيٍّ مُعقَّد، يُخلي ساحةَ الفعلِ، ويَحتلُّها بالفَراغ. فالقُعودُ فضلًا عن أنَّه تخلُّفٌ مَكانيٌّ عن اللَّحاقِ بركبِ المُؤمنينَ، هو أيضًا انسحابٌ داخليٌّ من مشروعِ التَّغييرِ، وخروجٌ شُعوريٌّ من مَنطقِ التَّكليفِ، واختيارٌ ضمنيٌّ للبَقاءِ في الظِّلِّ حينَ يشتدُّ وهجُ الطَّريقِ.

في المُعجمِ القرآنيِّ، يتكرَّرُ لفظُ القُعودِ بصيغٍ مُختلفة، في آياتٍ ترتبطُ بالمَعارك والمَواقف المَصيريّة، خصوصًا في سورتي التَّوبةِ والأحزاب. وتتَّضحُ الرَّمزيّةُ العَميقةُ لهذا اللَّفظ حينَ يُربطُ برضا النَّفس: ﴿**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨٧].

الرِّضا هنا يُمثِّلُ قناعةً مُستقرّةً بالتأخُّر، وطَمأنينةً زائفةً لموقعِ العُزلة، واستبطانًا لفكرةِ أنَّ التَّراجُعَ أقلُّ كلفةً من المُضيِّ، وأكثرُ أَمانًا من المُشاركة.

القُعودُ، في هذه القراءة، لا يتعلَّقُ بحركةِ الجَسد، بل بمَيلٍ داخليٍّ يَجنحُ نحوَ الخُمول، ويَبحثُ عن مُبرِّرات للخُروجِ من سياقِ الفعلِ. فالقاعدُ لا يُعلنُ رفضَه صراحةً، ولا يُعلنُ استسلامَه جهارًا، وإنَّما يَسلكُ طَريقًا ناعمًا من التَّراجعِ البَطيء؛ حيثُ يُقنعُ نفسَه أنَّ الظَّرفَ غيرُ مناسب، أو أنَّ الأولويّات مُختلفةٌ، أو أنَّ الأمرَ لا يَعنيه تمَامًا. ومن هنا، يتحوَّلُ القُعودُ إلى حالةٍ وجدانيّةٍ مَحكومةٍ بالخوفِ والتأجيلِ

واللّامبالاة.

وتتجلَّى خطورةُ هذه الحالة في أنَّ القاعدينَ لا يتوقَّفونَ عندَ حدود أنفسهم، بل يَنقلونَ تأثيرَهُم إلى الصفِّ كلِّه. فكما أنَّ الحماسةَ مُعديةٌ، فإنَّ الفُتورَ كذلك يَنتشرُ. ويَكفي في مجتمعٍ ما أن يَكثرُ فيه القاعدونَ، حتى يتحوَّلَ النَّشاطُ إلى فتور، والعَزمُ إلى تردُّد، والاندفاعُ إلى حَذر مُفرط. وهذا ما رَصدَه القرآنُ حينَ نقلَ كلماتِهم المَسمومةَ: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ**﴾ [التوبة: ٨١]

عبارةٌ قصيرةٌ تَختزلُ مَنطقَ القاعد: تَركيزٌ على الظَّرف، تَهويلٌ للمَشقّة، إرجافٌ بالحالة، وحَثٌّ غيرُ مباشر على البَقاء في الدَّعة، وكأنَّ طريقَ الرِّسالة يُشترَطُ له الطَّقسُ المُناسبُ والظُّروفُ المثاليّة.

ولا يقفُ المَعنى عندَ التَّثبيط الظّاهر، بل يَمتدُّ إلى التَّواطُؤ الخفيِّ، حيثُ يُصبح القُعودُ سياسةً لا اعتذارًا، ومَوقفًا لا مُجرَّدَ عَجز. فحينَ يتخلَّفُ أحدٌ عن الخُروج معَ رسول الله ﷺ دونَ مُبرِّر مَشروع، ثم يُبرِّرُ فعلَه بلغة مُشبَعة بالوَرَع أو الحَذَر أو الحِكمة، فإنَّ خطابَه يُصبحُ أداةً رمزيّةً لتَعويق الجَماعة؛ لأنَّه يُنتجُ نَمطًا من الانسحاب المُريح، المُقنَّع بألفاظ الإيمان ذاته.

وفي هذا الإطار، يَتقاطعُ القُعودُ مع مفاهيمَ أُخرى في البنية القرآنيّة كـ"الرَّجفة" و"الزَّلزلة"؛ إذ إنَّ الذي يَقعُدُ في لحظة النَّفير يَفعلُ ذلك غالبًا تحتَ ضَغطٍ داخليٍّ، ارتباكٍ وجدانيٍّ، أو خوفٍ من المَجهول.

وبذلكَ، فإنَّ القعودَ يتغذَّى من هشاشةٍ داخليّةٍ تمَنعُ الإنسانَ من أن يَخطوَ خارجَ مُحيطِه النَّفسيِّ المُعتاد.

يَظهر هذا المَعنى بوضوحٍ في مَوقفِ المُنافقينَ في غزوة الأحزاب، حينَ اجتمعَ التَّهديدُ الخارجيُّ معَ الرُّعبِ الدّاخليّ: ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠**﴾ [الأحزاب: ١٠]

فالذين قَعدوا في هذا المَشهدِ لم يُفاجَأوا بالخَطرِ؛ لأنَّه كان لديهم استعدادٌ مُسبقٌ للانسحاب. فجاءَت الزَّلزلةُ لتكشفَ هذا الاستعدادَ، ولتُظهرَ أنَّ القعودَ كان نتيجةَ ثقافةٍ داخليّة، لا حادثًا طارئًا.

إذًا، كان القعود نتيجةً لخللٍ عَميقٍ في التَّكوينِ الإيمانيِّ، وليسَ فعلاً لاحقًا على الحَدَث، وهو ما عبَّرَ عنه القرآنُ بقوله: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ**﴾ [التوبة: ٤٦]

فـ«قيل» هنا إشارةٌ إلى ميلٍ داخليٍّ لم يُقابَلْ بالعَزمِ، بل وُجِهَ بالخذلان، حتى استراحَ صاحبُه إلى الجلوسِ، وصارَ القعودُ له مأوًى نفسيًّا، لا حالةً مُؤقَّتةً.

والمُثيرُ أنَّ القرآنَ يَتجاوزُ الرِّجالَ في وَصفِ القُعود، ليَربطَه أحيانًا بـ"الخَوالف"، وهي النِّساءُ أو مَن يُنظَرُ إليهم على أنَّهم خارجَ ميدانِ النِّزال: ﴿**رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ**﴾ [التوبة: ٨٧].

في هذه الصِّيغةِ تَحقيرٌ غيرُ مباشرٍ لمَن اختارَ أن يُخرِجَ نفسَه من دائرةِ

الفعلِ، ويُصنِّفَ ذاتَه ضمنَ فئةٍ لا يُطلَبُ منها التحرُّكُ. وليس الغَرَضُ الحطَّ من النِّساء؛ لأنَّ الفعلَ الذي قَعدوا عنه ليس من أعمالِ النِّساءِ، فكانَ في هذا التَعبيرِ كشفًا عن انعدام الوعي، الذي يُسقِطُ التَّكليفَ عن الذّاتِ بدافعِ الرّاحةِ أو الخَوف.

وعندَما تتحوَّلُ هذه الحالةُ إلى موقف جماعيٍّ، تَظهرُ أعراضُها في تَعطيلِ القَراراتِ، وتَجميدِ المُبادراتِ، وتَهميشِ الفاعلينَ. وتُصبحُ لغةُ القاعدينَ مألوفةً في الفضاءِ العامِّ:

- «ننتظرُ قليلاً لنرَى ما سيَحدثُ»
- «الظَّرفُ غيرُ مناسبٍ الآنَ»
- «التَّهوُّرُ ليسَ من الحِكمة»
- «يَكفينا ما عندَنا من أزَمات»

هذه اللُّغةُ لا تَرفَعُ رايةَ التَّخاذُلِ، ولا تُنادي بالاستسلام، ولا تُصرِّحُ بالنُّكوصِ والفرارِ، لكنَّها تَزرعُ مُناخًا رَماديًّا مُشبعًا بالتأجيلِ، وتُفرِّغُ الزَّمنَ من فاعليته، وتُحوِّلُ كلَّ لحظةٍ إلى مساحةٍ مُعلَّقة لا قرارَ فيها. ومن هنا، يَتماهى القُعودُ مع الغيابِ الذي يَتركُ أثرًا سلبيًّا في الحضورِ؛ لأنَّه يُسكِتُ صوتَ الفِعلِ، ويَمنحُ الصَّمتَ صفةَ الرأي، والانتظارَ مَنزلةَ الحِكمة.

في المجتمعاتِ التي تتطلَّعُ إلى النُّهوضِ، يُصبحُ القعودُ الخطرَ الأكبرَ؛ لأنَّه يُخرِّبُ من الدّاخلِ، ويُعوِّقُ التقدُّمَ باسمِ الواقعيّةِ، ويُقنِعُ

النُّخبةَ بالتَّردُّد، ويَخنق الجُرأةَ في مَهدِها. ولا يُمكنُ مُقاوَمةُ هذا النَّمط إلا بتَربيةٍ شُجاعة تَزرَعُ في النُّفوسِ الجُرأةَ على التقدُّم، وتَنتزِعُ الإنسانَ من ركونِه إلى الرّاحة، وتَربطُه بمَعنًى أعلى يَجعلُ الألمَ في سبيل التَّكليفِ مَقبولاً، بل مَحبوبًا.

وهكذا، ينتقلُ القعودُ من مجرَّدِ حالةِ ضعفٍ عابرةً، إلى مَوقف وجوديٍّ يتمُّ اختيارُه وتَغذيتُه والدِّفاعُ عنه، ويَحتاجُ إلى وعي جماعيٍّ يُحاصِرُه بالبَصيرة لا بالهُجوم، وبتَفعيلِ الإيمانِ الحيِّ الذي يُعيدُ الإنسانَ إلى مِحورِ الفِعل، لا إلى هامشِ الترقُّبِ.

■ المبحث الثالث: الزَّلزلةُ والرَّجفةُ والمَرض

يتميَّزُ الخطابُ القرآنيُّ بقدرتِه الفائقة على توصيفِ اللَّحظاتِ التي يَهتزُّ فيها الصفُّ الإيمانيُّ من الداخلِ، حينَ يتعرَّضُ لاختبارٍ بالغِ القَسوة يَكشفُ عن البنيةِ النَّفسيّة للجَماعة، ويُعرِّي ما اختبأ تحتَ مَظاهرِ التديُّنِ الظّاهريِّ من تردُّدٍ أو فتورٍ أو خوفٍ مُقنَّعٍ. في تلكَ اللَّحظات، لا تعودُ المَظاهرُ معيارًا كافيًا للحُكمِ على الصِّدقِ والرُّسوخِ، بل تُستدعى أدواتُ تحليلٍ أعمقُ تَقتربُ من النَّفسِ ومن مُستوياتِ الوجدان، وتَقرأ علاماتِ التَّفكُّكِ والتَّزلزُلِ من خلالِ حركةِ القلبِ لا من خلالِ المَواقفِ المُعلَنة.

في هذا السِّياق، يَعتمدُ القرآنُ ثلاثَ مُفرداتٍ أساسيّةٍ تَصِفُ هذه الهَشاشةَ الدّاخليّةَ المُتفجِّرةَ عندَ مَحَكِّ الفعلِ: الزَّلزلة، والرَّجفة، والمَرَض. وتأتي هذه الكلماتُ بوصفها رموزًا كاشفةً لحالات الاضطرابِ البنيويِّ في البنيةِ الإيمانيّة، حينَ تتعرَّضُ هذه البنيةُ لتوتُّرٍ حادٍّ من الخارجِ، فيَنكشفُ ما هو غيرُ مُستقرٍّ في داخلها. وهذه الرُّموزُ ليسَت مَعزولةً عن موضوعِ المُعوِّقينَ، بل تُمثِّلُ الأرضَ النَّفسيّةَ التي يَنشطُ فيها المُعوِّقُ، ويَجدُ فرصتَه في تأكيدِ خطابِه، وتَمريرِ مَنطقِه، وتَثبيتِ عَجزِه باعتباره خيارًا عقلانيًّا في لحظة الخوفِ الجَماعيِّ.

الزَّلزلةُ، من حيثُ الأصلُ اللُّغويُّ، تدلُّ على الاضطرابِ الشَّديد، ولكنَّ استعمالَها في القرآنِ يَتجاوزُ هذا المَعنى الفيزيائيَّ، ليُصبحَ تَعبيرًا عن رجّةٍ نَفسيّةٍ تُصيبُ الوجدانَ وتُفكِّكُ تَماسُكَه. ففي غزوة الأحزاب، حينَ تجمَّعَت قوى الكُفر حولَ المدينة، وجدَت الجماعةُ المُؤمنةُ نفسَها مُحاصَرةً من الخارجِ، ومفتوحةً على احتمالاتِ الانشقاقِ من الدّاخلِ، فعَبَّرَ النصُّ عن هذا الوَضع بـ: ﴿**هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾ [الأحزاب: ١١].

لم يكن هذا الزِّلزالُ تَصويرًا لوَقعِ الهُجوم؛ لأنَّ الهُجومَ لم يَقَعْ بَعدُ، فهو إذن تصويرٌ لانعكاسِ تخيُّلِ الهُجومِ في النُّفوسِ، والطَّريقةِ التي ارتجَّتْ بها القلوبُ أمامَ الفَقدِ المُحتمَلِ، والفناءِ المُتخيَّلِ، والخوفِ من الهَزيمةِ. تلكَ الزَّلزلةُ أعادَت ترتيبَ الوَعي داخلَ الصفِّ، فظهرَ

فيها الثابتُ والمُتردِّدُ، وبرزَ صوتُ التَّشكيكِ في وعدِ الله ورسوله، وهو التَّشكيكُ الذي يَنمو دومًا في بيئةِ التوتُّرِ حينَ لا تكونُ الثِّقةُ باللهِ مُتجذِّرةً.

والزَّلزلةُ بهذا المَعنى لحظةُ فَرز، لا مُجرَّدُ تَهديد. فهي تُخرِجُ من النُّفوسِ ما فيها، وتكشف نوعَ العَلاقةِ التي تَربِطُ الإنسانَ بربِّه، وهل هي علاقةُ انتظارٍ للنَّتائجِ الحسيّةِ، أم علاقةُ رسوخٍ تتجاوزُ المُعطيات. ومن هنا نَفهَمُ تكرارَ الزَّلزلة في الخطابِ التَّربويِّ لسورة البَقرة؛ حيثُ يُسأل الجيلُ الجَديدُ من المؤمنينَ: ﴿**أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ**﴾ [البقرة: ٢١٤].

هذه الزَّلزلةُ لا تُعبِّرُ عن ضعف، وإنَّما عن امتحانٍ لصحّةِ البِناء. فالنُّفوسُ التي تَجاوزَتِ المِحنةَ كانَ الخَوفُ يَموجُ فيها، وهذا ليسَ خَلَلًا لأنَّ الخوفَ من طبيعةِ الفِطرةِ الإنسانيّة، لكنَّ النُّفوسَ المؤمنةَ تجاوزتِ الخَوفَ من موقعِ الإيمانِ، وخرجَت من الزَّلزلةِ أكثرَ رُسوخًا وثَباتًا.

في السِّياق نفسه، تَبرُزُ الرَّجفةُ كرمزٍ لحالةِ الارتباكِ المُفاجِئ، والانهيارِ الدّاخليِّ السَّريعِ في مُواجَهةِ الصَّدمة. وتُستعمل في القرآنِ لوَصفِ ما جَرى لبعضِ الأقوامِ التي واجهَت نَذيرًا من أنبيائِها، فأعرضَت، ثم داهمَها الغضبُ الإلهيُّ دونَ سابقِ إنذارٍ من مَنظورِها الظّاهريِّ. من

ذلك ما وردَ في قصّةِ شُعيب: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٩١].

هذه الرَّجفةُ لم تَنشأ في لحظةِ الهَلاكِ، وإنَّما بُنِيَت في النُّفوسِ على مَدى سنواتٍ من الاستهزاءِ، والاستهانةِ، والتَّلاعُبِ بالحقِّ. حينَ تُواجِهُ النَّفسُ نداءَ الله بلا خَشيةٍ، وتَنظرُ إلى الدِّينِ كمُجرَّدِ نَصيحةٍ أو تَهديدٍ لا جدِّيَّةَ فيه، فإنَّها تُصبحُ عُرضةً للانهيارِ الكليِّ حينَ يُكسَرُ غُرورُها. والرَّجفةُ، بهذا المَعنى، لحظةُ سقوطٍ داخليٍّ أكثرَ من كونِها عُقوبةً خارجةً.

ولَدى قراءةِ العلاقةِ بينَ الرَّجفةِ والمُعوِّقينَ، يمُكنُنا ملاحظةُ أنَّ المُعوِّقَ لا يَعملُ بمَعزلٍ عن هذه الحالةِ، بل يَنمو فيها، ويَستغلُّها، ويتغذَّى منها. تمنح الرجفةُ خطابَه ساحةً خصبةً؛ لأنَّ الجماعةَ المُرتجفةَ تُصغي إلى لغةِ التأجيلِ، وتُرحِّبُ بمَن يُقلِّلُ من شأنِ الخَطرِ الحَقيقيِّ، أو مَن يَعرِضُ خيارَ التَّراجُعِ بوَصفِه مَخرجًا من مأزقٍ مُحتَّمٍ. في هذا المناخِ، لا يَحتاجُ المُعوِّقُ إلى كثيرٍ من الإقناعِ، ويَكفيهِ أَنْ يُضعفَ النَّفَسَ، فيَنطفئَ الفعلُ.

أمّا المَرضُ فهو الرَّمزُ الأكثرُ تَعقيدًا؛ لأنَّه لا يُشيرُ إلى لحظةٍ زمنيّةٍ مُحدَّدةٍ، وإنَّما إلى حالةٍ كامنةٍ تَستمرُّ في النُّفوسِ وتَتراكَمُ. المَرضُ هنا مرضٌ في القَلبِ، وليسَ في البَدَنِ، أي في مَركزِ الوَعي، والحافزِ، والإرادةِ. وردَ في القرآن: ﴿**فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ**

﴿مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

فهؤلاءِ لا يُعلنونَ صَراحةً عداءَهم، لكنَّهم يُحرِّفونَ الرُّؤيةَ من داخلِها، ويُعيدونَ تأويلَ الوَعدِ الإلهيِّ على نحوٍ يُوحي بأنَّه غيرُ واقعيٍّ، أو مثاليٌّ بعيدُ المَنالِ، أو من نوعِ الخُطَبِ التَّحفيزيّةِ التي لا تُقاوِمُ الحقيقةَ في الميدانِ.

المرضُ، في هذا السِّياقِ، يَتجاوزُ المُعارَضةَ إلى نَوعٍ من الضَّبابيّةِ الدَّاخليّةِ، التي تُفسِدُ على النَّفسِ قدرتَها على الانطلاقِ. يُصبِحُ المُصابُ به مُهيّأً لتلقِّي الإرجافِ، والاشتباهِ، والمُبالَغةِ في المَخاوفِ. وهو أيضًا المُوزِّعُ الصّامتُ لها، حينَ يَنقُلُ شُكوكَه إلى غيرِه في هيئةِ أسئلةٍ، أو تحفُّظاتٍ، أو مُشاوَراتٍ، ظاهرُها الحكمةُ وباطنُها العَرقلةُ.

وعندَما تتداخلُ الزَّلزلةُ والرَّجفةُ والمَرضُ في واقعِ جماعةٍ ما، تتشكَّلُ بيئةٌ نفسيّةٌ تُتيحُ للمُعوِّقينَ أن يَعملوا بفَعاليّةٍ أكبرَ، دونَ الحاجةِ إلى اصطدامٍ مُباشرٍ أو صِراعٍ مُعلَنٍ؛ إذ يُصبحُ صفُّ الإيمانِ مُهيّأً كي يتقبّلَ لغةَ الانسحابِ، وكي يُعيدَ تفسيرَ التَّكليفِ على نحوٍ أقلَّ إلحاحًا. وهنا يتحقَّقُ التَّعويقُ كفعلٍ جَماعيٍّ ناتجٍ عن خللٍ وجدانيٍّ، لا عن وجودِ أفرادٍ سلبيِّينَ فحسب.

ولأجل ذلكَ، يَصِفُ القرآنُ هذه الرُّموزَ، ويَربطُها بوظيفة تَنقيحيّة؛ حيثُ تَعملُ الزَّلزلةُ على كشف غيرِ المُستعدِّ، وتُخرِجُ الرَّجفةُ مَنِ اعتمدَ على الكثرةِ والواجهةِ، ويُفضَحُ المَرضُ حينَ يُواجِهُ نورَ الوَحي الواضح. هذه الرُّموزُ ليسَت علاماتِ هَزيمة، بقدرِ ما هي فَرَصٌ لإعادة بناءِ الصفِّ على أسُس جديدةٍ، حينَ تُستثمَرُ في سياقِ التَّربيةِ والبَصيرةِ لا في سياق التَّثبيطِ والانكفاءِ.

فالمُعوِّقُ، إذ يتحرَّكُ في هذه المَساحة الرَّمزيّة، لا يَخلقها، لكنَّه يتسلَّلُ عبرَها. وإنْ نجحَت الجَماعةُ في تَرميمِ وجدانِها، فإنَّها تُغلِقُ عليه المَنافذَ دونَ أن تخوضَ معَه معركةً صاخبةً. وبذلكَ تَتفادى خطورتَه من جُذورِها.

الفصل الرابع:

البُعد التَّربويُّ والخُلُقيّ في التَّعاملِ مع المُعوِّقينَ

■ المبحث الأول: منطق التَّربية القرآنيّة في مُواجَهة التَّعويق

يَنظر القرآنُ إلى التَّعويق على أنَّهُ مرتبطٌ بالبنيةِ الإيمانيّة، وأنَّه علامةٌ على اهتزازٍ داخليٍّ في النَّفسِ والمؤسَّسة معًا، وإشارةٌ مُبكِّرةٌ على انحراف الوَعي عن مركز الجاذبيّةِ الرِّساليّة، ويتعامل مع المُعوِّق على أنَّه كيانٌ تتبدَّى فيه جملةٌ من التَّراكماتِ النَّفسيّةِ والرُّوحيّةِ التي لم تُعالَج داخلَ الصفِّ في الوقتِ المُناسبِ. ولذلك جاء العِلاجُ القرآنيُّ لهذا التَّثبيطِ بأسلوبٍ تربويٍّ يُلامِسُ الجذورَ، ويُخاطِبُ البنيةَ الشُّعوريّةَ، لا الموقفَ الظاهريَّ فحسب.

تتعدَّدُ الآياتُ التي كشفَت عن المُعوِّقينَ، وأظهرَت كيف يتحرَّكُ خطابُهم داخلَ الصفِّ ليُضعِفَ الحافزَ ويَزرعَ الشَّكَّ في النُّفوس. ففي سورة التَّوبة، وردَ قول الله -تعالى-: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ**﴾ [التوبة: ٤٩].

في هذه الآيةِ تَنكشفُ إحدى أعمَقِ آليات التَّعويق وهي: تَقديمُ عُذرٍ ظاهرٍ يُخفي خلفَه رغبةً في الانسحاب، وتَغليفُ ذلك العُذرَ بلغةِ التَّحفُّظ؛ بحيثُ يَبدو الصَّوتُ المُتراجِعُ وكأنَّه أكثرُ اتِّزانًا من صوتِ الحَركة. فالمُعوِّقُ هنا يلتفُّ على الموقفِ من داخله، دونَ أن يَرفعَ شعارًا مُضادًّا، ويَستعملُ التَّبريرَ الخُلُقيّ ذريعةً للتخلُّف. والمَنهجُ القرآنيُّ يردُّ على هذا الالتفافِ بمُكاشفةٍ صَريحةٍ: السُّقوطُ وقعَ لحظةَ

التفافِ النَّفسِ، لا لَحظةَ غيابها الجَسديِّ.

في موضعٍ آخرَ من السُّورة نفسها، تُعرَضُ مَلامحُ حسّاسةٌ من بنية الخطابِ المُثبِّط حينَ يقول -تعالى-: ﴿**قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤].

وهنا يتجلَّى المنهجُ القرآنيُّ في تَعريةِ المُيولِ الخَفيّةِ التي تُحوِّلُ الرَّغباتِ المَشروعةَ إلى موانعَ حقيقيّةٍ عن الالتحاقِ بالمَشروعِ الإلهيِّ. فالمُعوِّقُ يمَنحُ الأولويّاتِ الطَّبيعيّةَ في الحياةِ حضورًا يَتجاوَزُ حدَّها، فتَغدو الأُسرةُ والتِّجارةُ والمالُ معيارًا للفعلِ والتَّراجُع. والتَّربيةُ القرآنيّةُ تَضعُ هذا الميلَ في سياقِ المُساءَلة، وتَدعو المُؤمنَ إلى قياسِ مَحبّتِه وفقَ سُلَّمِ الرِّسالة، لا وَفقَ توازناتِ العاطفةِ المُجرَّدة.

ويتَّضحُ عمقُ هذه التَّربيةِ حينَ نَقرأُ قولَ الله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ**﴾ [التوبة: ٤٧].

في هذا التَّصويرِ القرآنيِّ، تَظهرُ التَّربيةُ الواقيةُ التي تتجاوزُ مُجرَّدَ الحَثِّ على النَّفيرِ، لتكشفَ أثرَ بقاءِ المُثبِّطينَ في الصَّفِّ، وما ينشرونَه من سُلوكِ الخُمولِ والنُّكوصِ، وما يُسبِّبُه خِطابُهم الصّامتُ المُغلَّفُ بالنَّصائحِ

من شُروخٍ داخليّةٍ في الصفِّ ذاته. من هنا يَظهر البُعد الخُلُقيّ للتَّربيةِ القُرآنيّة: صيانةُ الجماعةِ لا تتحقَّقُ إلا بالتَّماسُكِ الوُجدانيِّ والوُضوحِ العقديِّ، ولا عِبرةَ في ضخامةِ العَدد وكثرةِ السَّواد. والتَّثبيطُ حين يتسرَّبُ من الدّاخل، يتحوَّلُ إلى فتنة تُشوِّشُ القرارَ وتُضعفُ الإرادةَ.

وقد تَعمَّقَ الخطابُ القرآنيُّ في قراءةِ النَّفسِ المُثبِّطة حينَ ربَطَها بالحساسيّة المُفرطة تجاهَ التوتُّرات، كما في قوله -تعالى- عن المنافقينَ: ﴿**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ**﴾ [المنافقون: ٤].

هنا تُوصَفُ النَّفسُ المُثبِّطةُ بأنَّها نفسٌ مُضطربةٌ، تُعيدُ تأويلَ كلِّ صوت خارجيٍّ بوَصفه تَهديدًا مُباشرًا. هذه الحالةُ النَّفسيّةُ لا تُنتجُ قرارًا عَقلانيًّا، بل تُنتجُ ثقافةً من التوجُّس والانكماش، تَجعلُ الجماعةَ تَعيشُ في قلقٍ دائم، وتتردَّدُ في كلِّ خطوة؛ لأنَّها تَنظرُ إلى كلِّ نداءٍ باعتباره فَخًا مُحتمَلاً. ومن هنا، يُبنَى التَّحصينُ التَّربويُّ على مُستوى الفعلِ الظَّاهريِّ، وعلى مُستوى الوجدانِ الدّاخليِّ الذي يُحدِّدُ كيفيّةَ استقبالِ الإشاراتِ من الخارج.

في ختام سورة التَّوبة، تتجلَّى التَّربيةُ القُرآنيّةُ في أبهى صُوَرِها، من خلال تَثبيتِ المَعاييرِ التي تُربيِّ الفردَ والجماعةَ على وحدة الاتِّجاه، وصدق الاستجابة، ووُضوح المَرجعيّة. يقول -تعالى-: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**﴾ [التوبة: ١٢٠].

يبدأ الخطاب هنا من التَّوجيه، ثم يَنطلقُ ليَغرِسَ في وعي المؤمنِ مَبدأً جوهريًّا: الارتباطُ بالرِّسالةِ يتطلَّبُ تَخليةَ النَّفسِ من كلِّ رغبةٍ شخصيّةٍ تُعارِضُ مسارَ الجهاد. ومعَ هذا المَبدأ، يُنظرُ إلى التَّعويقِ على أنَّه خَلَلٌ في ترتيبِ الأَولويّات، وعلامةٌ على انتكاسٍ في مُستوى التَّزكية، وليس مجرَّدَ نوعٍ من التَّردُّد.

ومن خلال هذا البناءِ المُتكاملِ، تُقدِّمُ التَّربيةُ القرآنيّةُ مَشروعًا خُلُقيّا يَرفضُ التَّثبيطَ، ويُؤسِّسُ لثقافةٍ فعليّةٍ تتجاوزُ الخوفَ، وتُعيد تمركُزَ الحافزِ، وتُربيِّ النَّفسَ على اختيارِ الواجبِ لا المزاجِ، وعلى اتِّباعِ الوَحيِ لا الإشاراتِ النَّفسيّةِ المُتردِّدة. وهكذا لا يُختزَلُ المُعوِّقُ في شخصٍ، وإنَّما يُقرأُ باعتباره صوتًا، وحالةٍ، واختبارًا دائمًا لطهارةِ النِّيةِ، وصفاءِ الالتزامِ، واستقامةِ الاتِّجاه.

■ المبحث الثاني: التحوُّل الخُلُقيّ من المُعوِّقِ إلى الفاعل

في السِّياقِ القرآنيِّ، يُقدَّمُ المُعوِّقُ على أنَّهُ كيانٌ يمُكن إصلاحُهُ، ويُطرح داخلَ نسقٍ تربويٍّ يمُهِّدُ لتَحوُّلِه المُمكنِ نحوَ الفعل. لا يُغلق الخطاب الإلهي بابَ العودة بابَ العَودة، ولا يضعُ الإنسانَ في حُجرةِ المَيؤوسِ منه، المفروغِ من أمرِه، بدليلِ أنَّه يُعطيه الفُرصةَ ويمَنحُه القدرة على الاستدراكِ، حينَ يُوقِظُ في داخلِه جذوةَ الإرادةِ. هذا الانفتاحُ على

التحوُّل، يُعبِّرُ عن روح التَّربيةِ القرآنيةِ التي تَبني الإنسانَ على قاعدة التَّزكية، وتُراهِنُ على استعدادِه للاستجابةِ حينَ يتوفَّرُ له المناخُ الدّاخليُّ المُساعدُ.

فالآياتُ التي تَذمُّ التخلُّفَ وتُوبِّخُ المُتقاعسينَ تُتبِعُ اللَّومَ والتَّوبيخَ بإشاراتٍ تَربويّةٍ تُعيدُ فتحَ المَجال أمامَ الاستئناف. ففي سورةِ التَّوبة، وبعدَ عرضٍ تَفصيليٍّ لحالات التَّراجُع، يقول -تعالى-: ﴿**وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**﴾ [التوبة: ١٠٢].

في هذا المَوضعِ، يُصوِّرُ السِّياقُ القُرآنيُّ الذُّنوبَ التي ارتكبَها بعضُ المُعوِّقينَ، ثم يتَّجهُ اتِّجاهًا تربويًّا، فيَذكرُ أنَّ الخَلطَ بين الالتزامِ والإعراضِ من طبيعةِ النَّفسِ الإنسانية، التي تتميَّزُ بقابليتِها للتَّداخُلِ بينَ الطّاعةِ والتَّقصير، ويَلفتُ إلى قيمةِ الاعترافِ بالذَّنبِ بوَصفِه نقطةَ بدايةٍ للتحوُّل. وهذا الاعترافُ يُسهِم في إخراجِ صاحبِه من حالِ الغَفلةِ إلى مَوقعِ المُساءلةِ الذّاتية.

تستعرض سورة التوبة نفسها حالاتِ مَن تخلَّفوا، ثم جاؤُوا يَطلبونَ الغُفرانَ، فيقولُ الله -تعالى-: ﴿**وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ**﴾ [التوبة: ١٠٦].

وهذا التَّعليقُ القرآنيِّ يتغاضى عن المُحاسَبةِ والتَّوقيفِ على تَبعاتِ الذَّنبِ، ويُصوِّرُ مَوقعًا حسّاسًا في المَسارِ التَّربويِّ؛ حيثُ يقفُ الإنسانُ

على عتبة القَرار، ويُترَكُ له المَجالُ لاختيار مَوضِعه من جَديد. فالتأجيلُ هنا أصبحَ فُرصةً لكشف الصِّدق من الادِّعاء. وهذه الفُرصةُ، في ذاتها، تُمثِّلُ ترجمةً للعَدالة الإلهيّة التي تترفَّعُ عن الحُكم على اللَّحظة وحدَها، وتَحكمُ على المسار، وعلى القابليّة للرُّجوع.

في تربية القرآن، لا يُعرَّفُ الإنسانُ بخطوته الأولى، وإنَّما بمقدار ما يَمتلكُه من قدرة على المُراجَعة. ولهذا يُعالِجُ التَّثبيطَ عبرَ إشعال الحَياء الإيمانيِّ، ودَفع الإنسان إلى مُقارَبة فعله بمَقاييس الغاية التي يَحملُها. ومع هذا النَّوع من التَّربية، يتحوَّلُ التأخُّرُ إلى مُحفِّز على التَّدارُك. والتّاريخُ النبويُّ يَذخرُ بنَماذجَ لمَن خُذلوا ثم رَجعوا، ومَن تَراجَعوا ثم التَحَقوا، وأصبَحوا جزءًا فاعلاً في حركة الرِّسالة. وهذه السِّيَرُ تُؤكِّدُ أنَّ التَّغييرَ مُتاحُ، وأنَّ الخطابَ الإيمانيَّ لا يُقيمُ هويّةَ الإنسان على لحظة واحدة، بل يَبنيها على مَشروع دائم من الوَعي والاستجابة.

التحوُّلُ في التَّصوُّر القرآنيِّ يتجسَّدُ في الفعل والتَّدارُك، وليسَ في النَّدَم واليأس. ولهذا، تأتي الآياتُ التي تُعالجُ الضَّعفَ مَتبوعةً بآيات تَبعثُ الرُّوحَ في الصفِّ، وتُحفِّزُ أهلَ الإيمان على المُضيِّ، كقوله -تعالى-: ﴿**ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٤١].

هذه الدَّعوةُ، كما هو واضحٌ، تُبنى على خلفيّة من الوَعي بالمَخاطر، ومِن الانكشافِ أمامِ حالاتِ التردُّدِ، ومن التَّعافي عبرَ الاستجابةِ

الفعليّة. وكلُّ خروجٍ نحوَ الميدانِ يُمثِّلُ فعلَ تَطهيرٍ، وكلُّ خطوةٍ في طَريقِ الواجبِ تُمثِّلُ تَجاوُزًا نَفسيًّا لحالة الخَوف القَديمة.

إنَّ التَّربيةَ القرآنيّةَ، حين تَنظرُ إلى المُعوِّق، تُبقي أمامَه بابًا مُشرَعًا، بشرطِ أن يُغادرَ موقعَ التردُّدِ إلى موقعِ الالتزام. لا تُوجَدُ هويّةٌ مُغلَقةٌ تَمنعُه من التحوُّل، ولا يُبنى الحُكمُ عليه بوَصفِه عِبئًا دائمًا. وإنَّما يُوضَعُ في مسارٍ مَفتوحٍ يُتيحُ له أن يُعيد تشكيلَ نفسِه، وأن يُثبتَ صِدقَه بأقوالِه وأفعاله، وبما يُضيفُه لحركةِ الجماعة من إخلاصٍ وإرادة. وبهذا الفَهم، يتحوَّلُ الصفُّ إلى ساحةِ تَربيةٍ تُنتِجُ الإنسانَ الفاعلَ عبرَ الاختبارِ والمُكاشفةِ، لا عبرَ الإقصاءِ والنَّبذ.

الفصل الخامس:

المُعوِّقونَ في الواقع المُعاصر- من الفَردِ إلى البنية

■ المبحث الأول: صناعة التَّعويق في العصر الحديث

يَشهدُ العالمُ المعاصرُ توسُّعًا غير مَسبوق في الأدوات التي تُنتِجُ التَّعويقَ وتُعيدُ تَشكيلَه داخلَ الوَعي العامِّ، دونَ أن يُرفَع شعارٌ مباشرٌ للانسحاب أو يُعلَنَ خطابٌ صريحٌ للتَّثبيط. تغيَّرَت آلياتُ العَمل، فتراجَعَت الأصواتُ الفرديّةُ المُتردِّدةُ، وتقدَّمَت بنياتٌ ناعمةٌ تُوجِّهُ المزاجَ الجَمعيَّ نحوَ الفتور والتَّراخي والانسحاب النَّفسيّ، دونَ حاجة إلى صراعٍ ظاهر. وهنا تَظهر الحاجةُ إلى استدعاء المَنظور القرآنيِّ بهدف القراءة من الدّاخل؛ لأنَّ النصَّ الإلهيَّ صاغَ بُنى الظَّواهر والأحداث على أن تكونَ حاضرةً في كلِّ عصر، مستساغةً لكلِّ ذوق، ملائمةً للتَّطوُّر التّاريخيِّ والعَقليِّ، فلا يُخلِقُها تتابعُ الزَّمن، ولا يُذهِبُ رَونَقَها التَّرديدُ.

في سورة التَّوبة، تُعرَضُ واحدةٌ من أعقَد صُور التَّعويق حينَ يقولُ الله -تعالى-: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواۗ**﴾ [التوبة: ٤٩].

تُظهر الآية صَوتًا يُقدِّمُ عُذرًا نفسيًّا مُموَّهًا، مُستخدمًا لغةَ التحفُّظ الخُلُقيّ ليُخفي به مَيلاً إلى التخلُّف. فهذا المُثبِّطُ لا يَرفضُ الخروجَ عَلنًا، وإنَّما يتظاهرُ بطلب الإذن مُتلبِّسًا بشَكلٍ من أشكال الاتِّزان، ومُتَّخِذًا من الخوفِ على النَّفس ذريعةً للنُّكوصِ والتَّراجُع. هذه البنيةُ

الخطابيّةُ تمُثِّلُ الجوهرَ ذاتَه الذي يُعيدُ إنتاجَه التَّعويقُ في صيغته الحديثة، عبرَ تَغليف القُعود بلغة التَّوازُن، وتَقديم التردُّد على أنَّه مُراجَعَةٌ عَقلانيّةٌ. إنَّ آليةَ التَّبرير هذه تَحضر اليومَ بأدوات أكثرَ دِقّةً، عبرَ الإعلام، والتَّربية، والثَّقافة الاستهلاكيّة؛ حيثُ تُجمِّلُ النَّفسَ المُثبّطةَ بصورٍ من التَّهذيب والتحفُّظ والانفتاح.

في سورة الأحزاب، يتقدَّمُ النصُّ القرآنيُّ خطوةً أبعَدَ، حينَ يُظهرُ أنَّ المُعوَّقَ يَبدأُ مسيرةَ التَّعويق بتزيين التَّراجُع لنَفسه وإقناعها بالحجج، ثم يتحوَّلُ إلى مُشوِّش على الآخَرين، كما في قوله -تعالى-: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الأحزاب: ١٨].

الصُّورةُ هنا تتعدَّى الفردَ المُتخلِّفَ إلى خطاب يمُارسُ تأثيراً جَمعيًّا، يَدعو الآخَرينَ إلى الانسحاب، ويُعيد تفسيرَ الخطر بلُغة استدرار، تُلبِّسُ الحذرَ لباسَ الحُنوِّ، وتُحوِّلُ التَّراجُعَ إلى دعوة للخَلاص. وهذه البنيةُ الخطابيّةُ تَعكسُ واحدةً من أخطر أدوات التَّعويق في العالَم المُعاصر: صناعةُ بيئة نفسيّة مُشبَعة بالخَوف، تتداوَلُ القَلقَ، وتُعيدُ إنتاجَه، وتَدعو إليه من مَوقع الرَّأفة، لا من مَوقع العَداء.

في الوقت نفسه، يَعرضُ القرآنُ في سورة الأنفال نمَطًا آخَرَ من التَّعويق، يتجلَّى في إضعاف المَعنويات لحظةَ المُواجَهة، كما في قوله -تعالى-: ﴿**إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ**

دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩].

في هذه العبارةِ المُختزَلَةِ، يُكشَفُ جوهرُ خطابِ التَّشكيكِ: السُّخريّة من الثِّقة بالله، والتَّقليل من قيمةِ الاندفاع الرِّساليِّ، ورَبط الفعل الجهاديِّ بالتوهُّمِ والغُرورِ. ومن الواضِح أنَّ هذا الخطابُ يَتجنَّبُ الصَّخَبَ واستعمالَ القوّةِ وخوضَ المَعارِك، ويتَّجِهُ إلى إفراغِ مَسيرةِ الإيمان والالتزامِ بواجباتِ الطَّاعة من مَعناها وجَوهرها. وتلك هي الميزةُ المُشتركةُ بينَ المُعوِّقينَ في زمنِ الوَحي، والمُثَبِّطينَ في زمنِ الشّاشةِ: كلاهُما يتجنَّبُ المواجَهةَ المُباشَرة، ويَسعى إلى إفراغِ الأفعالِ الإيمانيةِ من الدّاخلِ عبرَ تَسفيهِ الحافزِ أو تَهشيمِ الرُّوح.

وحين تَبرزُ هذه النَّماذجُ، من داخلِ مَنظومةِ التَّعويقِ الحَديثةِ، تظهرُ الحاجةُ إلى الوَعي بأنَّ التَّثبيطَ قد تَجاوزَ السُّلوكَ الفَرديَّ، وتحوَّلَ إلى صناعةٍ ناعمةٍ تُديرُها أنظمةُ إنتاجٍ ثقافيٍّ، تُعيد تشكيلَ الذَّوقِ، وتُغذِّي الاستهلاكَ، وتُنتِجُ هويّةً مُشوَّشةً تَحيا بلا بوصلةٍ. يتعرّض الفرد المعاصر لمئاتِ الرَّسائلِ اليوميّةِ التي تُؤثِّرُ في إعادةِ ترتيبِ أولويّاته دونَ أن يَشعُرَ، وتُضعِفُ إدراكَه لقيمة المَعنى، وتُحبِّبُ إليه التَّسويةَ، وتَمنحُه القدرةَ على التَّراجُعِ دونَ أن يكونَ هذا التَّراجُعُ مَصحوبًا بالشُّعورِ بالخَللِ. ومعَ هذا التَّشويشِ المُتواصِلِ يُصبح التَّثبيطُ جزءًا من البيئةِ، لا قَرارًا واعيًا.

يتنحّى المنهج القرآنيّ، في مواجهةِ هذا التَّحدِّي عن تَقديمِ وصفةٍ

سَريعةٍ للمُقاومة، ويَشتغِلُ على بناءٍ عميقٍ للفَردِ والجَماعة، من خلالِ إعادة تشكيلِ مَفاهيم الحافز، والمَعنى، والالتزام. يقول -تعالى-: ﴿**ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٤١].

هذه الدَّعوةُ تَنبعُ من تصوُّرٍ شاملٍ للفعلِ الإيمانيِّ؛ حيثُ يُصبح الانخراطُ في الحركةِ اختيارًا وجوديًّا، لا ردَّ فعلٍ لمُؤثِّرٍ خارجيٍّ. وبهذا المعنى، تُصبحُ مقاومةُ التَّعويق في الزَّمنِ المعاصرِ مُمكنةً حينَ يُعاد الاعتبارُ للمَعنى، ويُستعادُ الفعلُ بوَصفِه امتدادًا للنيّة، وتُبنى الحَصانةُ النَّفسيّةُ من خلالِ تحرُّرِ الإنسانِ من هندسةِ الخوفِ التي تُنتَجُ له عبرَ الآلةِ اليوميّةِ للتَّمويه.

■ المبحث الثاني: هندسة التَّثبيط الجماهيريّ

في بنيةِ العالَمِ الحديث، تَخلَّت المُؤسَّساتُ عن الحيادِ تجاهَ المَعنى، وتحوَّلَت إلى أدواتٍ فاعلةٍ في إعادةِ تَشكيلِ الوجدانِ، وضَبطِ إيقاعِ الإدراك، وتوجيهِ الحَوافزِ نحوَ مساحاتٍ استهلاكيّةٍ خاليةٍ من البوصلة. التَّربيةُ، والإعلامُ، والتِّقنيّات الرَّقميّة، والإعلانات، ومناهجُ التَّعليم، كلُّها تمُثِّلُ عناصرَ في شبكةٍ ناعمةٍ تُعيد إنتاجَ حالةٍ من التَّثبيط الجماهيريِّ، من خلالِ الإغراءِ، والتَّكرارِ، والتَّطبيعِ مع السَّطحيّةِ،

والانفصالِ عن الجَوهر.

هذه الهندسةُ تَجاوزَت آليّات التَّأثيرِ الخارجيِّ في النَّفسِ، وانتقلَت إلى التَّأثيرِ فيها من الدّاخلِ، فنَفَذَت إلى العالَمِ الدّاخليِّ، وأخذت في العَملِ على إعادةِ برمجةِ الإنسانِ ليَشعُرَ أنَّ الانسحابَ أكثرُ راحةً من الالتزامِ، وأنَّ التَّسويةَ أكثرُ حكمةً من المُقاومة، وأنَّ الرُّكونَ إلى الحياةِ اليوميّةِ أكثرُ اتِّساقًا من الدُّخولِ في مَشقّةِ الفعلِ الرِّساليّ؛ بحيثُ يُصبحُ التَّثبيطُ حينَها ناتجًا عن تراكُمٍ داخليٍّ تُشكِّلُه البيئةُ، وتُعيدُ تَرسيخَه المنصّاتُ المُتعدِّدةُ، حتى تتحوَّلَ حالةُ الخمولِ الوجوديِّ إلى جزءٍ من الشَّخصيّةِ الاجتماعيّة.

في القرآن الكريم، تُعرَضُ هذه الآليّةُ النَّفسيّةُ بدقّةٍ حينَ يَصف اللهُ حالَ مَن انشغلوا بالمُحيط الاستهلاكيِّ عن المَعنى الإيمانيِّ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

التَّحذيرُ هنا يتركُ المُعوِّقَ الصَّريحَ، ويتوجَّهُ إلى المؤمنِ الذي يَعيش في قلب الامتلاكِ والانشغال، وقد لا يَشعر أنَّ طاقتَه الرُّوحيّةَ تتآكلُ تحتَ ضغط التَّفاصيلِ اليوميّة. تبني المؤسسات المعاصرة هذه البيئةَ بالضَّبط: تُكثِّفُ المُحفِّزاتِ الماديّةَ، وتُضعفُ الإشاراتِ الرُّوحيّةَ، وتُحوِّلُ الذّاكرةَ الدِّينيّةَ إلى خَلفيّةٍ صامتة. ومعَ تكرارِ هذه الدَّورة، يَضمحِلُّ الحافزُ الرِّساليُّ في النَّفس، ويَضعُفُ التعلُّقُ بالمآلاتِ الكُبرى.

في سورة الحَديد، تَظهرُ آليّةُ إعادة استنهاض هذا الوَعي، حينَ يقول -تعالى-: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ**﴾ [الحديد: ١٦].

يتجاهل الخطاب هنا الجاحدَ، ويتوجَّهُ إلى المُؤمن الذي أصابَه الفُتورُ، وأذعنَ لضغط الأُلفة والعادة، ودخلَ في رتابة الإيمان دونَ حرارة الرِّسالة. وهذا النَّوعُ من التَّنبيه يُمثِّلُ نَموذجًا للتَّربية التي تُواجهُ التَّثبيطَ الجَماعيَّ عبرَ إحياء المَعنى، لا عبرَ الإدانة. إنَّها تَصحو بالنِّداء، لا بالصُّراخ، وتُعيدُ الإنسانَ إلى مَركزِه التَّكوينيِّ عبرَ خطابٍ يُوقِظُ القلبَ قبلَ أن يَستجديَ السُّلوكَ.

في العالَم المؤسَّسيِّ، تُصاغُ الرَّسائلُ وَفقَ بناءٍ بَصريٍّ ولغويٍّ مُتقَن، تُضخُّ فيه الصُّوَرُ المتُكرِّرةُ، والتَّفصيلاتُ السَّطحيّةُ، والقصصُ المُعدَّةُ سلفًا. وهنا تتجلَّى خطورةُ المَنظومة؛ لأنَّها تتجاوزَ تَثبيطَ الفعلِ، إلى تشكيلِ الإنسان نفسه بطريقة لا تَسمحُ له بتصوُّر الفعلِ. في هذه الحالة، يُصبحُ المُعوِّقُ شاشةً تُرسِلُ إشارةً، أو مَنهجًا يُدرَّس، أو إعلانًا يُعيد تعريفَ الطُّموح.

يُقابلُ هذا الانزلاقَ خطابٌ قرآنيٌّ عميقٌ يُعيدُ تمَركُزَ الإرادة. يقول الله -تعالى-:﴿**فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٥].

هذا التَّوجيهُ يُذكِّرُ المؤمنَ بمَكانته الدّاخليّة، ويُرسِّخُ فكرةَ العُلوِّ المَعنويِّ المُرتبِط بالمَعيّة الإلهيّة. في هذه اللَّحظة، يَستعيدُ الإنسانُ استحقاقَه للمَعنى، ويُعادُ شحنُ الحافزِ في داخلِه عبرَ استحضارِ العلاقةِ معَ اللهِ بوَصفِها مَصدرَ الثَّباتِ والتَّجاوز.

■ المبحث الثالث: مقاومة التَّعويق في الوعي المعاصر

في ظلِّ تمدُّدِ أدواتِ التَّثبيطِ، وتَغلغُلِها في تفاصيلِ الحياةِ الحديثة، تَظهر الحاجةُ إلى نمطٍ جديدٍ من المقاومة، يُبنى على تفكيكِ البنيةِ العَميقةِ التي تُنتِجُ التَّراخيَ، وتُضعفُ الحافزَ، وتُعيدُ تعريفَ الالتزامِ وفقَ أهواءِ المَرحلة. وضمنَ هذا السِّياقِ، يُقدِّمُ التَّصوُّرُ القرآنيُّ نفسَه بوَصفه أداةً لبناءِ الفاعليّة من الجذر، ومَنهجًا لتكوينِ إنسانٍ لا يَجرِفُه تيّارُ التَّكرار، ولا يُعيد إنتاجَ هشاشته بتَبريراتٍ خطابيّةٍ مُغلَّفة.

يتَّجهُ القرآنُ إلى إعادةِ بناءِ الوَعي في اللَّحظةِ التي تتكاثرُ فيها الأصواتُ المُربكة، فيُعيدُ تَعريفَ المَفاهيمِ الأساسيّة: العَزيمة، والثِّقة، والمَعنى،و المآل، والمَسؤوليّة. كلُّ واحدةٍ من هذه المَفاهيمِ تُستدعى في لحظاتِ التَّعويق، لتُستحضَرَ بوَصفِها مُحرِّكًا للنُّهوضِ. من الآياتِ التي تُعبِّرُ عن هذا الاستدعاءِ المُتكاملِ، قول الله -تعالى-: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ**

﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

في هذا الموضع، لا يُواجَهُ التشبيط بمَنطق التصوُّر الوُجوديِّ؛ حيثُ تتحوَّلُ كلُّ مآلاتِ المعركة إلى فَوز. يتحقَّق النصر في الشَّهادة كما يتحقَّقُ في الغَلَبَة، وحضورُ الله في مسار الفعلِ يُصاحبُ الحركةَ منذُ انطلاقِها، ولا يَقتصرُ على انتظارها في نهايةِ المَطاف. في هذا المُستوى من الوَعي، يَفقد الخوفُ مَنطقَه، ويتآكلُ التردُّدُ؛ لأنَّ المَقاييسَ تُبنى على ما يُستحضَر من المَعنى، وليسَ على ما يُرى من الظَّواهر.

من صُور هذه التَّربية أيضًا، تَوجيهُ النَّفس نحوَ استحضارِ التّاريخ بوصفه ذاكرةً حيّةً تُغذِّي العَزمَ. يقول -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

يتجاوز الخطاب هنا تَزيينَ الفكرة، ويُستدعى ليُثبِّتَ قاعدةً قرآنيّةً في وجدانِ المُؤمن: الفاعليّةُ لا تتحدَّدُ بالعَدد، وإنَّما تتشكَّلُ من صدق النيّة، وصحّة المَسار، ومَتانة الصَّبر. وحينَ يُغرس هذا التَّصوُّرُ في العَقل تتراجعُ سُلطةُ الإحصاءات، وتَتلاشى سَطوةُ التَّهويلِ، ويَخرج الإنسانُ من سجنِ الواقع إلى أفقِ المَعيّة الإلهيّة.

ولعلَّ أبرزَ ما يُميِّزُ المُقاومةَ القرآنيّةَ للتَّثبيط أنَّها تَنطلقُ من تصوُّرٍ مُتوازنٍ للإنسان، لا يُطالِبُه بالكمالِ، بقَدرِ ما يُطالِبُه بالاستمرار في

السَّعي. ولهذا جاءَ كثيرٌ من الآيات بخطابٍ يُعزِّزُ النَّفسَ دونَ أن يُدلِّلَها، ويَبني الأملَ دونَ أن يُضعفَ الحسَّ بالمَسؤوليّة. يقول -تعالى- في سورة الزُّمر: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

تنتج هذه الآية لحظةَ انبعاثٍ في قلب مَن تراكَمَ عليه الرُّكودُ، فتُفكِّكُ الشُّعورَ باليأسِ، وتُعيدُ تركيبَ المَعنى داخلَ النَّفسِ، وتَفتح بابَ العَودة من مَوقعِ الكرامة، لا من مَوقعِ الإذلال. وهذا النَّموذجُ التَّربويُّ يُخالفُ الأنماطَ الوَعظيّةَ التي تُعلِّقُ التَّغييرَ على لحظاتٍ نادرة، أو على مَحطّات استثنائيّة، ويَستبدلُها بإرادةٍ تتحرَّكُ في كلِّ لحظةٍ، وتُعيد القرارَ في كلِّ مَوضعِ تردُّدٍ.

في هذا الأفق، يُصبحُ بناءُ الوعي القرآنيِّ فعلاً تَحصينيًّا يَسبقُ المُواجَهةَ، ويمَنحُ الإنسانَ مناعةً ذهنيّةً لا تَستسلِمُ لتَراكُمِ المؤثِّرات، وتستطيعُ غربلتَها على ضوءِ معنًى ثابت. فيُصبحُ للإنسانِ مقياسٌ لا يتغيَّرُ بتغيُّرِ الصَّيحات، ولا يَلينُ أمامَ سُيولةِ المَفاهيم، ويَحتكمُ إلى تصوُّرٍ عميقٍ للغَيبِ، والرِّسالة، والامتحان، والغاية. وهكذا، تتحوَّلُ المُقاومةُ من فعلٍ خارجيٍّ إلى نمطِ حياةٍ داخليٍّ، يَشتغلُ من لحظة التَّفكيرِ، لا من لحظةِ الفِعلِ فقط.

الفصل السادس:

الرَّمزيّة وتجليّاتُها في القرآن

■ المبحث الأول: البنيةُ الرَّمزية للمُعوِّقِ في القرآن

يُقدِّمُ السِّياقُ القُرآنيُّ الشَّخصياتِ والأحداثَ في إطارٍ رمزيٍّ دقيق، يمَنحُ اللَّفظةَ بُعدًا يَتجاوزُ سياقَها الزَّمني، ويُحوِّلُ الموقفَ الفرديَّ إلى مرآةٍ تَعكس طبائعَ مُتكرِّرةً في النَّفس والمُجتمعِ والتّاريخ. ومن هذا المُنطلَق، تَظهرُ شخصيّةُ المُعوِّق في القرآن بوَصفِها رَمزًا ونمَطًا عامًّا، وليست حالةً فرديّةً خاصّةً، فهي تمُثِّلُ تموضُعًا دائمًا في خارطة الحركةِ الإيمانيّة؛ حيثُ يَظهر التردُّدُ، والتَّثبيطُ، والتَّسويف، والمُراوغة، بوصفها أنماطًا تتكرَّرُ بأقنعةٍ مُختلفة، لكنَّ جوهرَها يظلُّ واحدًا: إبطاءُ المَسارِ وتَعطيلُ الاندفاعِ الرِّساليّ.

حينَ يَصفُ القرآنُ بعضَ المُنافقينَ بـ«المُعوِّقينَ»، كما في قوله -تعالى-: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الأحزاب: ١٨].

فهو فضلاً عن فضحِ دَورهم الظّاهريِّ يُقدِّمُ تمَثيلاً رمزيًّا لآليّة التَّعويق في بنية الجَماعة. فهؤلاء لا يَنكفِئُونَ إلى الخلف فقط، بل يتحرَّكونَ ضمنَ الصفِّ، يَهمسونَ، ويلمّحون، وينادون من داخل الخَفاء، ويُمارسونَ دورَهُم كمَن يُعيدُ ترتيبَ الخوف داخلَ وعي الآخَرينَ. يبتعد المعوِّق هنا عن مواجهةِ المُقاتلينَ، ويُركِّزُ على الفاعلِ بوَصفه حاملاً للمَعنى، ومُبادرًا للحَركة. فيكونُ التَّعويقُ، بهذا المَعنى، تموضُعًا رَمزيًّا مُضادًّا للفاعليّة، ومُحاولةً دائمةً لاستبدال المُبادَرةِ بالتَّحفُّظ، والعَزمِ بالتَّردُّد.

ويَظهرُ هذا البُعدُ الرَّمزيُّ أكثرَ وُضوحًا حين نَربطُ بينَ ألفاظِ التَّعويقِ، وألفاظِ التَّثاقُلِ، والفُتورِ، والانشغالِ، وكلُّها تَنتظِمُ ضمنَ حقلٍ دلاليٍّ يُشيرُ إلى إعاقةِ الدّاخلِ قبلَ إعاقةِ الخارجِ. يقول -تعالى-: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ [التوبة: ٣٨].

هذا «التَّثاقُلُ إلى الأرضِ» يُمثِّلُ حالةً جسديّةً، ويَحملُ رَمزًا شديدَ البلاغةِ عن انجذابِ النَّفسِ إلى الماديِّ، وتَفضيلِ السُّكونِ على الحركةِ، والرُّكونِ على الاجتهادِ. الأرضُ هنا تتجاوزُ مفهومَ المَوطنِ، لتُصبحَ رمزًا للثِّقَلِ، للرَّاحةِ، للمألوفِ، لِما يُعطِّلُ الصُّعودَ. وهذا المَعنى يتكرَّرُ في كثيرٍ من مفرداتِ التَّراجُعِ القرآنيّةِ، التي تتَّخذُ من الجغرافيةِ والسُّلوكِ الحسِّيِّ جسرًا للعبورِ إلى البنيةِ النفسيةِ العالقةِ.

كما يُمثِّلُ المُعوِّقُ في البنيةِ الرَّمزيّةِ القرآنيّةِ نَقيضًا مُستترًا للرِّسالةِ. فحَيثُما يَتقدَّمُ النبيُّ بدَعوةٍ، يَظهرُ في مُقابلِه مَن يُعطِّلُ الحركةَ، دون مواجهةٍ، من خلالِ التَّردُّدِ والميلِ إلى السُّكونِ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ**﴾ [التوبة: ٤٩].

هنا يُتقِنُ التَّعويقُ لعبةَ التخفِّي، ويُغلِّفُ انسحابَه بلغةِ الاتِّزانِ، ويُحوِّلُ الخوفَ إلى حكمةٍ، ويَستبدلُ المُشاركةَ بالإذنِ. وهذا الأسلوبُ يُشكِّلُ في حقيقتِه خطابًا رمزيًّا للمجتمعِ المأزومِ، الذي يَستبدلُ الوضوحَ بالتَّأويلِ، ويُربيِّ في أفرادِه قابليّةَ الانسحابِ المُغلَّفِ باللُّطفِ.

ويَبلغُ الرَّمزُ ذروتَه حينَ تُعرَضُ صورةُ القلبِ المُغلَق، الذي لا يَستجيبُ لمَعنى الرِّسالةِ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨٧].

القلبُ هنا جهازٌ شعوريٌّ، تحوَّلَ إلى ساحةٍ للمَعنى، ومساحةٍ للاستقبالِ. والتَّعويقُ في هذه الحالةِ يصدرُ عن الانغلاقِ الرَّمزيِّ الذي يُصوِّره السِّياقُ القرآنيِّ. يُشير الطبع على القلبِ إلى توقفِ الفاعليّةِ من الدّاخلِ، وغيابِ القدرةِ على تلقِّي الإشارةِ، وفقدانِ الحاسّةِ المَعنويّةِ التي تُحرِّكُ الإنسانَ نحو المَعنى.

في هذا السِّياقِ، تَتجاوَزُ شخصيّةُ المُعوِّقِ تعريفَها السُّلوكيَّ، لتُصبحَ رَمزًا قرآنيًّا يُشيرُ إلى تَعطيلِ الطّاقةِ الدّاخليةِ، وإلى الانفصال عن الحركةِ، وإلى تَغليفِ الخوفِ بمُفرداتِ العقلِ. هذا الرَّمزُ يتكرَّرُ في كلِّ جيلٍ، ويتجلَّى في أنماطٍ مُتعدِّدةٍ، من رجلٍ يتأخَّرُ بحُجّةِ التروِّي، إلى جماعةٍ تُؤجِّلُ بحُجّةِ الظُّروفِ، إلى مُؤسَّسةٍ تُفرِّغُ القِيَمَ من طاقتِها باسم الواقعيّةِ. والمُعوِّقُ، بهذا المَعنى يُخفي خُصومَتَه، ويَتنحَّى عن المُواجهةِ الصَّريحة، ويَنشطُ من كونِه جزءًا من البنيةِ، من النَّسيجِ، من الوجدانِ العامِّ الذي يتآكلُ بصَمتٍ.

▪ المبحث الثاني: تجلِّيات المُعوِّق الرَّمزيِّ في نماذج قرآنية

في امتدادِ التَّصوُّرِ الرَّمزيِّ للمُعوِّقِ، تتوزَّعُ في النصِّ القرآنيِّ نماذجُ

عدّةٌ تتجلّى فيها ملامحُ هذا الكيان، فيَظهرُ بأنماطٍ مُتباينة تمُثِّلُ مستوياتٍ مُختلفةً من التَّعويق: فبعضُ المُعوِّقينَ يُعطِّلُ الفعلَ من داخلِ الرُّؤية، وآخَرُ يُربكُ الصفَّ من موقعِ المُجاوَرة، وثالثٌ يُفرِّغُ المفهومَ من مَعناهُ، وهو يتكلَّمُ بلغةِ النُّصحِ وتحرِّي المَصلحة. القراءةُ الرَّمزيّةُ لهذه النَّماذجِ لا تَسعى إلى تَثبيتِ القالبِ، بل إلى الكشفِ عن المُشتركِ البنيويِّ الذي يُعيدُ نفسَه في صُوَرٍ مُتغايرة.

يُستهَلُّ هذا التّاريخُ الرَّمزيُّ بنَموذجِ قابيلَ في سورة المائدة، الذي لم يَحتَكِمْ إلى هاجسِ العَدلِ أو الغَيرةِ الصَّريحة، وواجَهَ أخاهُ بدافعٍ داخليٍّ غائم، تَحوَّلَ إلى تعطيلٍ لفعلِ القُربان، ثم انقلبَ إلى عُنفٍ ماديٍّ. يقول -تعالى-: ﴿**قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

في هذا المشهدِ، يَظهرُ التَّعويقُ كطاقةٍ عُدوانيّةٍ كامنة، نشأتْ من غيابِ الصَّفاءِ الدّاخليِّ، وعدمِ قدرةِ النَّفسِ على تجاوُزِ الحسدِ إلى التَّسليم. يجسّد قابيل هنا رُوحًا تتألَّمُ حينَ تَرى الفعلَ الصّادقَ، وتَسعى إلى تَعطيله بإلغائه من الوجود، دونَ وجهٍ ودونَ نقاش. وهذا النَّمطُ يتكرَّرُ رَمزيًّا في كلِّ لحظةٍ يُواجَه فيها النُّورُ بظلامٍ نفسيٍّ خفيٍّ، يَصدرُ عن قلقٍ من وهجِ المَعنى.

في سورة الأعراف، يَظهر نموذجُ السّامريِّ، بوَصفه شخصيّةً مُعقَّدةً تمُثِّلُ تَعطيلاً رمزيًّا من نوعٍ مُختلف. لم يُنكر السامريّ اللهَ، ولم يَقفْ ضدَّ موسى صراحةً، لكنَّه اقترحَ بَديلاً رمزيًّا، وصاغَ فِعلاً تعبُّديًّا فارغًا من

التَّوحيد، مَليئًا بالإيحاء البَصريِّ. يقول -تعالى- على لسانه: ﴿**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى**﴾ [طه: ٩٦].

فالسّامريُّ بهذا التَّبرير يَتجاوزُ مرحلةَ التَّراجُعَ إلى تقديم نفسه على أنَّه يَشقُّ طَريقًا مُوازيةً للتَّمثيلِ الإلهيِّ، عبرَ صناعةِ رمزٍ مُزيَّف (عجلٍ جسدٍ له خُوار). السّامريُّ بهذا يُجسِّدُ التَّعويقَ في صورةٍ أعقَدَ من القُعودِ، وذلك من خلال الإزاحة الرَّمزيّة؛ حيثُ يُقدِّمُ الفعلَ الكاذبَ بَديلاً عن الحَقيقة، ويُوجِّهُ الجماعةَ إلى تمثال بَرّاق يَحرفُها عن مَسارها التَّوحيديِّ. ومثلُ هذا النَّمطِ يتكرَّرُ في كلِّ زمنٍ يُقدَّمُ فيه الرَّمزُ الفارغُ ليَحلَّ محلَّ المَعنى.

في قصّة طالوتَ وجالوتَ، يَبرُزُ نوعٌ ثالثٌ من التَّعويق الرَّمزيِّ، حينَ تَنكشفُ النُّفوسُ التي ادَّعَت الاستعدادَ، ثم سقطَت في أوَّل اختبار. يقول -تعالى-: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثمَّ يتحدَّثُ عمَّن عَبَروا، ومَن شَربوا، ومَن ثَبتوا. هنا يُفرَزُ الصفُّ بناءً على معيار بَسيط، لا يَقتضي إلا القُدرةَ على الصَّبر. فالذينَ شربوا تَجاوَزُوا الخطَّ الفاصلَ، وتَحوَّلُوا من مَشروعٍ إلى هامشٍ. التَّعويقُ في هذه القصّة يَصدُرُ عن ضعفٍ داخليٍّ أمامَ الماءِ في لحظة جفافٍ رُوحيٍّ. الصُّورةُ الرَّمزيّةُ هنا تُظهِرُ التَّعويقَ كإخفاقٍ صامتٍ، يَكفي فيه أن تَميلَ النَّفسُ إلى الرّاحة.

في سورة النُّور، يَظهرُ التَّعويقُ من خلال خطاب المُرجفينَ، الذينَ وزَّعوا القلقَ داخلَ المَدينة، حينَ طوَّفُوا قصّةَ الإفك، وأعادوا قولَها بأشكال مُتعدِّدة. يقول -تعالى-: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٥].

هؤلاء بعيدونَ عن تعطيلِ الفعلِ الجهاديِّ، ويعملونَ على إفسادِ نسيجِ الثِّقة داخلَ الجَماعة. والتَّعويقُ هنا يتمُّ من خلال الفَوضى المَعنويّة، لا من خلال التَّخاذُل. فالمُرجفونَ يمُثِّلونَ طاقةَ تَعويق تَنخرُ من الدّاخل، وتُعطِّلُ حركةَ النَّفس نحوَ الطَّمأنينة، وتُربكُ مركزَ القيادة الرَّمزيّة للنبيِّ. وهذا النَّموذجُ يَعكسُ أخطرَ أشكال التَّثبيط: حينَ يُعادُ إنتاجُ القلق في كلِّ لسان، وتُصبحُ الشّائعةُ بَديلاً عن المَعنى، والظَّنُّ بَديلاً عن البُرهان.

كلُّ هذه النَّماذج، على اختلافِها، تَنتمي إلى بنية رمزيّة واحدة، تُشيرُ إلى أنَّ التَّعويقَ لا يَرتبطُ بموقف سُلوكيٍّ فقط، بل يتجلَّى كتحوُّل في طبيعة التلقِّي، وفي نمط الاستجابة، وفي شكل العلاقة مع الوَحي. وقيمةُ هذه القراءة تكمنُ في التَّوصيف وفي اكتشاف خيوط المَعنى التي تَسمحُ بتَفكيك مُعوِّقي اليَوم، ممَّن يَسيرونَ بينَ النّاس، ويَحملونَ لغةَ الحقِّ، لكنَّهم يَزرعونَ ثقافةَ التردُّد، ويُغلِّفونَ القُعودَ بلباس الحِكمة، ويَدفعونَ الجَماعةَ إلى الهُمودِ من داخلِها، لا من خارجِها.

■ المبحث الثالث: وظيفةُ الرَّمزِ في كشف المُعوِّقِ الخفيِّ

عندَ بلوغِ القراءة الرَّمزيّة أفقَها التأويليَّ في القرآن، تُصبحُ وظيفةُ الرَّمز أداةً تتجاوَزُ تمثيلَ المَعنى إلى تفكيك الظَّواهر التي تَختبئُ خلفَ أقنعةٍ مألوفة، وتتسلَّلُ إلى بنيةِ الصفِّ من خلال صُوَرٍ يَصعُبُ تَصنيفُها بمَعاييرِ الظّاهر. فالمُعوِّقُ، حينَ يتجذَّرُ كرمز، يتخفَّى في هيئةِ النّاصح، أو الحَريص، أو المُتأنِّي، أو الحكيم، أو المُعتدل. ولأنَّ هذه الصِّفاتِ تُحاطُ عادةً بهالةٍ من التَّقدير، يَنمو التَّعويقُ داخلَها في صَمتٍ، دونَ أن يُكتشَفَ إلا حينَ تتعطَّلُ حركةُ الجَماعةِ دونَ سببٍ واضح.

يعتمد القرآن الكريم الرَّمزَ لتوسيعِ الوَعي، وفتحِ مَجالاتِ الرُّؤية، وكشفِ ما لا يَظهرُ للعَينِ عندَ أوَّلِ وَهلة. وظيفةُ الرَّمزِ هنا تتكاملُ مع البَيان، ولا تتعارَضُ معَه. فحينَ يَعرِضُ النصُّ صورةَ "الَّذينَ في قلوبِهم مرضٌ"، فهو يبتعدُ عن تعيينِ الأسماء، ووصفِ الهيئات، ويُقدِّمُ للقارئ نَموذجًا تأويليًّا قابلاً للاختبارِ في كلِّ سياق. يُشير المرض هنا إلى قابليّةِ النَّفسِ لاستقبالِ التَّردُّد، وتمَثُّلِ الخوف، وتَحويلُه إلى مَنطقٍ مَقبولٍ داخلَ الصفِّ.

ومن أبرزِ أدواتِ الكشفِ الرَّمزيِّ في القرآن: إيقاعُ المُفارَقة بينَ الظّاهرِ والباطن، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ**

ءَامَنُواْ﴾ [البقره: ٨-٩].

يفضح الخطاب هنا الكذبَ اللُّغويَّ، ويَكشفُ آليّةَ التَّمثيلِ التي يُمارسُها المُعوِّقُ، حينَ يُلبسُ نفسَه ثوبَ الإيمان، ويَعيشُ داخلَ بنيةِ الجماعة، ويُمارسُ التَّعويقَ من تحتها، كمَن يُحرِّكُ الرِّمالَ تحتَ قدمَيه وهو يَبتسمُ. وهذه المُفارَقةُ بينَ اللِّسانِ والقلبِ تُصاغُ بلغةٍ رَمزيّةٍ تَسمحُ للقارئ أن يَرى ما لا يُقال، وأن يتلمَّسَ الخَلَلَ حتى عندَما يتخفَّى داخلَ ألفاظِ الإخلاص.

ويَشتغلُ الرَّمزُ القرآنيُّ أيضًا على المُستوى الحَرَكيِّ، من خلال تَصويرِ المُعوِّقِ في مواقعِ التَّردُّدِ، كما في مشهدِ الذينَ وَقفوا عندَ أطرافِ المَدينةِ زمنَ غزوةِ الأحزابِ، يُراقبونَ سيرَ المَعركةِ دونَ دخولٍ في إثرها. جاء في الآية: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ١٣].

هذا النِّداءُ، في ظاهرِه، يَحملُ دعوةً للتَّراجُعِ، وفي الوقتِ ذاتِه يُعبِّرُ رمزيًّا عن تموضُعٍ خارجَ النَّصِّ الرِّساليِّ؛ حيثُ تُصبحُ المدينةُ - رمزُ الجَماعةِ - ساحةَ خوفٍ، لا ساحةَ رَجاءٍ. والصَّوتُ المُعوِّقُ يُحجمُ عن إطلاقِ شعاراتِ الهُروبِ، ويُعيدُ تعريفَ المكانِ ذاتِه كمساحةٍ غيرِ آمنة. بهذهِ التِّقنيّةِ الرَّمزيّةِ، يُفتَحُ بابُ تأويلٍ دائمٍ لكلِّ صوتٍ يُعيدُ إنتاجَ الشكِّ في قلبِ الجماعة، ولو من بوّابةِ النَّصيحة.

كما يُستخدمُ الرَّمزُ في القرآنِ لتَجسيدِ التَّعويقِ بوَصفِه إغلاقًا للنّافذةِ

الدّاخليّة. فحينَ يقولُ الله -تعالى-: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

فهو يُعرِّفُ حالةً وجوديّةً، ولا يتوعَّدُ بعقوبة. وهذا الإغلاقُ المُتعدِّدُ للحواسِّ يُشيرُ إلى تعذُّرِ الفَهمِ الكاملِ، وتوقُّفِ الاستقبالِ من جميعِ المَنافذِ. المُعوِّقُ هنا يتجاوزُ تَعطيلَ الحركةِ إلى تَعطيلِ الاتِّصالِ، ويَغرقُ في عتمةٍ ذاتيّةٍ تمَنعُه من رُؤيةِ أيِّ معنًى يَتجاوزُ اللَّحظةَ. وهذه الصُّورةُ الرَّمزيّةُ تُضيءُ كلَّ حالةِ تكرارٍ بلا فَهمٍ، وكلَّ سكونٍ بلا مُراجعةٍ، وكلَّ انكفاءٍ تَتراكَمُ فيه العَوائقُ حتى تتحوَّلَ إلى جدارٍ نَفسيٍّ يَصعبُ اختراقُه.

في ضوءِ هذه القراءةِ، يتحوَّلُ الرَّمزُ من كونه لغةً أدبيّةً إلى كونه استراتيجيّةً تأويليّةً. ومن خلالِه يُعرَفُ المُعوّقُ بالبنيةِ التي يتحرَّكُ بها، والطّاقةِ التي يُفرغُها من الجماعة، والشُّعورِ الذي يُعيد إنتاجَه في النُّفوسِ. المُعوِّقُ لا يَصرخُ دائمًا، ولا يُعلنُ مَوقفًا صارخًا، وإنَّما يَكتفي بأنْ يُربِكَ التَّوازنَ، أو يَزرَعَ صَمتًا مَشوبًا بالشكِّ. ووظيفةُ الرَّمزِ القرآنيِّ أن يُبقي هذا النَّموذجَ قابلاً للكشفِ في كلِّ جيلٍ، مَهما تبدَّلَت وجوهُه، أو تنوَّعَت وسائلُه، أو توشَّحَ بعباراتِ الحِكمةِ والتَّروِّي.

الفصل السابع:

أبعاد التَّعامُل الخُلُقيّ والتَّربويِّ مع المُعوِّقين

■ المبحث الأول: خطاب الإصلاح في مُواجهةِ المُعوِّق

يُحدِّدُ التصوُّرُ القرآنيُّ التَّعامُلَ مع المعوَّق على أساسِ الفَهم وإمكان الإصلاح، لا على أساسِ العَداوةِ والخُصومة. فيُطرَحُ التَّثبيطُ على أنَّهُ خللٌ في التَّكوين النَّفسيِّ والمَعرفيِّ، يتطلَّبُ المُكاشَفةَ والتّأهيلَ. ومن هنا يَظهر الخطابُ القرآنيُّ في أبعاده الإصلاحيّة، لإعادة تشكيلِ الضَّميرِ الدّاخليِّ، كي يُواجهَ الإنسانُ ذاتَه، ويتجاوزَ انغلاقَه، ويعودَ إلى مسار الفعلِ عن وعيٍ واقتناعٍ.

أوَّلُ ملامحِ هذا الخطابِ تَظهر في أسلوب المُكاشفة؛ حيثُ يَكشفُ القرآنُ خبايا النَّفسِ المُتردِّدة دونَ أن يُشهِّرَ بها، ويَضع اليدَ على مواضعِ التردُّد بوَصفها بدايات مُحتملةً للمُراجعة. يقول -تعالى-: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

في هذا النَّموذج، لا يُبنى الحكمُ على لحظةِ النُّكوصِ وحدَها، بل تُعرض القصّةُ من أوَّلها: عهد، ووعد، ثم إخفاق، ثم إعراض. هذه الصِّياغةُ تتنحَّى عن قَصدِ التَّشهير، وتسمحُ للقارئ أن يتأمَّلَ المَسارَ بأكمله، ويَقيسَ نفسَه على ضوئه. فالإصلاحُ يَبدأ من وعي المسافة بينَ القولِ والفعل، ومن إدراك اللَّحظةِ التي تسرَّبَ فيها الخوفُ أو الهَوى إلى مَوضعِ القَرار.

ثم تأتي طبقةٌ أخرى من الإصلاحِ من خلال الإمهالِ التَّربويِّ؛ حيثُ لا يُغلَق بابُ التَّوبة، بل يُفتح المجالُ للمُراجعة دونَ إذلال. يقول -تعالى-: ﴿**وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٠٦].

هذه الفئةُ وُضعت في موضعٍ تربويٍّ يتأرجحُ بينَ الإمكانَين؛ كي تَنضجَ داخلَها الرَّغبةُ في الاستدراك. وهذه السِّياسةُ التَّربويّةُ، كما يتَّضح، تُبنى على اختبارِ الصِّدقِ بعدَ التلكُّؤِ. ومن خلال هذا الانتظار، يُتاحُ للمُعوِّقِ أن يتحوَّلَ إلى فاعلٍ، بشرط أن يُعيدَ تشكيلَ مَوقعِه داخلَ الجماعةِ، بالفعلِ الصّادقِ، لا بالأعذارِ والحجج الواهية.

ومن ملامحِ الخطابِ الإصلاحيِّ أيضًا، أنَّ القرآنَ يُعيدُ بناءَ المَعاييرِ الأخلاقيّةِ داخلَ الجماعة، بحيثُ يُربِّي الأفرادُ على القُدرةِ على التَّفريقِ بينَ مَن تَثبَّطَ، ومن حاولَ التَّخريبَ، وليس على التسرُّعِ في الإدانة، يقول -تعالى-: ﴿**لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ [التوبة: ٩١].

بهذه الآيةِ، يُعادُ بناءُ الفهمِ الجماعيِّ للتَّقاعسِ، فليسَ كلُّ تأخُّرٍ خيانةً، وليس كلُّ غيابٍ علامةً على النِّفاقِ. هذا الفهمُ الخُلُقيّ يُتيحُ للمجتمعِ أن يتعاملَ مع المُعوِّقِ بدرجةٍ من البصيرةِ، فيُفرِّقَ بينَ مَن تعذَّرَ عليه الفعلُ، ومَن تعمَّدَ الإرباكَ، بينَ مَن لم يَقدِرْ، ومَن لم يُرِدْ.

كما يُعيدُ القرآنُ توجيهَ العتابِ نحو المسارِ الجماعيِّ، لا نحوَ الفردِ فقط. فحينَ يتحدَّثُ عن الذين تخلَّفوا في تبوك، يُعيدُ رَسمَ صورةِ الصفِّ كلِّه، ولا يَتوجَّهُ إليهم بصورة واضحة على وجه الخصوص، يقول -تعالى-: ﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ**﴾ [التوبة: ١١٧].

ثم يُتبعها بقوله: ﴿**وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ**﴾ [التوبة: ١١٨].

التَّركيزُ هنا على مَن ثبَّتَ الصفَّ، وعلى مَن صبرَ، وعلى مَن عادَ، وليسَ على مَن تأخَّرَ. فبهذه القراءة، يُفهَم المُعوِّقُ باعتباره عنصرًا في سياق حيٍّ، لا اسمًا خارجًا عن الجماعة، ويُفهَم التَّراجُعُ باعتباره مرحلةً يُمكنُ تَجاوُزُها، لا ختمًا دائمًا يُلصَق بالجَبين.

في مجموع هذه الملامح، يتَّضحُ أنَّ الخطابَ الإصلاحيَّ في القرآن لا يُبرِّرُ التَّثبيطَ، ولا يَطبع القُعودَ، لكنَّه يَرفضُ الانفعالَ العقابيَّ، ويَفتح المجالَ لمُعالجة أكثرَ نُضجًا، تقومُ على فهم البنية النَّفسيّة، وإعادة شحن الإرادة، وتَثبيت المَعايير الخُلُقيّة داخلَ المجتمع، بما يُتيحُ عودةَ الفاعلِ المُحتمل.

■ المبحث الثاني: التَّربية الوقائية ضدَّ التَّعويق

يُولي القرآنُ الكريم أهمِّيةً كبرى لفكرة الوقايةِ؛ من حيثُ السلوكُ

والجذورُ النَّفسيّةُ التي تُنتج لحظةَ التَّثبيط، أو تُمهِّدُ لحالة القعود حينَ يشتدُّ النِّداءُ. فالمُعوِّقُ، في كثير من الأحيان، لا يَظهر فجأةً، بل يتكوَّنُ داخلَ النَّفسِ على هيئة قابلة للتَّراجع، تتغذَّى من ضعف البَصيرة، وتراكُم الخوف، وتَشوُّش المَفاهيم. ولذلك، جاءَ المنهجُ القرآنيُّ في بناء الإنسان مُشبعًا بروح التَّحصين الباطنيِّ، من خلال التَّربية على المَعنى، وتَثبيت مَركز العَزم، وتَطهير النيّة من شوائب المُزاحَمة.

تَبدأ هذه الوقايةُ بتَثبيت المفهوم، وعدم تركه في منطقة الغُموض. فالقرآنُ حينَ يَتناولُ القعودَ أو التَّثاقُلَ، يُعرِّفُهما بوصفهما حالةً نفسيّةً سلبيّةً، يَجبُ مُقاومتُها، ولا يَدعُ للنّاس حُرِّيةَ التَّأويل والتَّفسير. يقول -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: ٣٨].

السُّؤالُ هنا للَّوم على السلوك، ولاجتثاث جذور الفتور. وبهذا الأسلوب، يُربِّي المؤمنُ على محاسبة نفسه قبلَ أن يُختبرَ، وعلى التَّنبه لكلِّ بادرة تَثاقُلٍ قد تتحوَّلُ إلى عُذرٍ نفسيٍّ داخليٍّ، يَسرقُ من المرء لحظةَ الحسم.

ومن مَعالم هذه الوقاية أيضًا، تَنشيطُ الرُّؤية المُستقبليّة، وتَربيةُ النَّفس على مآلات الأفعال، بحيثُ لا تَنجرفُ وراءَ الحاضر القريب، يقول -تعالى-: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

في هذا الموضع يُربّى الإنسانُ على تراتُبيّة الأولويّات، وعلى الانتباه من محبةٍ قد تتحوَّلُ إلى حاجز عن الفعلِ. التَّربيةُ الوقائيّةُ هنا تشتغلُ على الوعي الدّاخليِّ والسُّلوكِ الظّاهريِّ معًا، وتُعلِّمُ النَّفسَ كيفَ تَزِنُ ما تُحبُّ، وكيفَ تَحرسُ قلبَها من فتنِ التَّقديمِ الخاطئِ للمَحبوبات.

ويُدرِّبُ القرآنُ النَّفسَ على تخيُّلِ لحظاتِ الضَّغطِ مُسبقًا، من أجل تَثبيتِ الحافزِ. ففي تربية موسى ﷺ لبَني إسرائيلَ، يَظهر تَحذيرُه حينَ قال: **﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾** [المائدة: ٢١].

هذا الخطابُ يَسبقُ لحظةَ الارتداد، فيُهيِّئُ النُّفوسَ للثَّبات، ويَكشفُ لهم سيناريو الضَّعف؛ ليُحصِّنَهم ضدَّهُ. وبهذا يُفهَم أنَّ التَّربيةَ الوقائيّةَ ليستَ إلّا صياغةً ذهنيّةً تمَنحُ الإنسانَ وعيًا استباقيًّا، يَبني قدرتَه على الاستجابةِ من قَبلِ أن يُستدعى للفعل.

كما يُعيدُ القرآنُ صياغة العلاقةِ مع الخوفِ، فيُدرِّبُ النَّفسَ على التَّعامُلِ معَه باعتباره اختبارًا للإرادة، لا حقيقة نهائيّة. يقول -تعالى-: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾** [البقرة: ١٥٥].

ويُتبعُها بـ: **﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾** [البقرة: ١٥٥].

فالمؤمنُ هنا يُدرَّب على مُواجهة الغَفلة والتَّهديد من داخل الطمأنينة، وعلى بناء جهاز داخليٍّ لا يَنكسرُ بأوَّل صدمة. هذه الوقايةُ النَّفسيّةُ هي التي تمنعُ التحوُّلَ إلى مُعوِّقٍ؛ لأنَّها تُهيِّئُ الرُّوحَ لتحمُّلِ لحظاتِ القلقِ، دونَ أن تَنهارَ أو تتذرَّعَ.

وتكتملُ التَّربيةُ الوقائيّةُ حينَ تُربَّى النَّفسُ على المعيّة الإلهيّة، لا على الحمايةِ البشريّة، يقول -تعالى-: ﴿**إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ**﴾ [آل عمران: ١٦٠].

في هذا المقام، يُطلَبُ من الإنسان أن يتعلَّقَ بالثِّقة، لا أن يَبحثَ عن الضَّمانات. ومعَ هذا المَعنى، تتحرَّرُ النَّفسُ من مَشروعيّةِ التَّراجُعِ، وتَستمدُّ طاقتَها من ارتباطها بالمُطلَق، لا من حساباتِ النِّسبيّ. وبهذا التأسيسِ، لا يجدُ الخوفُ أرضًا ليَتكاثرَ، ولا تَنمو في النَّفسِ شتلاتُ التَّثبيطِ؛ لأنَّ مركزَ الفعلِ لم يَعُدْ هَشًّا، بل صارَ مَربوطًا بربِّ الوجود.

■ المبحث الثالث: المعوِّق بين المحاسبة والتَّزكية- نحو منظومةٍ حُلُقيّة عمليّة

حينَ يَصِلُ الخطابُ القرآنيُّ إلى مستويات التَّعامُلِ الخُلُقيّ مع المعُوِّقينَ، لا يتَّخذُ منحَى الإدانة الثّابتة، ولا يتَّجهُ إلى الطَّمسِ الكاملِ لفُرصةِ الإصلاحِ، ويَبني مَنظومةً دقيقةً تقومُ على التَّوازُنِ بينَ المُحاسَبةِ

والتَّزكية. فالمُعوِّقُ يُواجَه، ويُكاشَف، ويُعرَّى إن اقتضى الموقفُ، لكنَّه يُمنَحُ كذلكَ فرصةَ استعادةِ التَّوازن، والتَّكفيرِ عن الخللِ، والدُّخولِ من جديدٍ إلى ساحةِ الفعلِ. هذه المُقارَبةُ تَنبعُ من رؤيةٍ قرآنيّةٍ خُلُقيّة تَرى الإنسانَ في مُجمَله، لا في لحظةِ انكساره وحدَها.

من جهةِ المُحاسَبة، يَعرضُ القرآنُ لحظاتٍ صارمةً من المُكاشفةِ مع الذين تخلَّفوا، خاصّةً حينَ يَتجاوزُ فعلُهُم التردُّدَ إلى التَّخريبِ المَعنويِّ أو التَّثبيطِ المَقصود، يقول -تعالى-: ﴿**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٦].

هذا النصُّ يُقدِّمُ تقويمًا حُلُقيًّا حادًّا لحقيقةِ ما جَرى. فهنا لا يُقبَل من المُعوِّقِ أن يتلطَّى وراءَ التَّبرير، ولا أن يَستبدلَ الفعلَ بالاعتذار، ما لم يُرافقْهُ إصلاحٌ فعليٌّ يُغيِّرُ من بنيته الدّاخليّة. والمُحاسَبةُ هنا لا تأتي من أجلِ الانتقام، بل من أجلِ تَرسيخِ معيارٍ واضحٍ في ضميرِ الجَماعة، يَمنعُ اختلاطَ المَعاني، ويَصونُ الفعلَ الجادَّ من الالتباس.

لكن في المُقابل، لا يُغلقُ القرآنُ بابَ التَّزكية، ويُفسحُ المَجالَ أمامَ الذين يُريدونَ التَّدارُكَ، ويُهيِّئُ لهم طريقَ العَودة، بكرامةٍ وتمَكينٍ تدريجيٍّ. في عرضِ قصّةِ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا، يقولُ -تعالى- بعدَ أن وصفَ ضيقَ الأرضِ والرُّوحِ عليهم: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٨].

التَّوبةُ هنا لا تُربَّى في داخلِ الإنسانِ من خلالِ التَّجربةِ، والنَّدَم،

والانقباضِ، حتى يُعادَ تشكيلُ البنيةِ النَّفسيّة. والتَّزكيةُ في هذا السِّياق تَعني إعادةَ تَصنيعِ القلب، وتمَكينِه من النُّهوضِ من جديد، مُحمَّلاً بوَعي التَّجربة، لا بوَصمة الفشل.

هذا التَّوازنُ بينَ المُحاسبة والتَّزكية يتطلَّبُ من الجماعة الخُلُقيّة وَعيًا رفيعًا، يمَنعُ التَّساهلَ معَ مَن يُكرِّرُ فعلَ التَّعويق، وفي الوقت نفسه يمَنحُ فرصةَ النُّهوضِ لمَن صدَقَ في رغبته بالعَودة. فالتَّربيةُ القرآنيّةُ لا تُربيِّ على العنف الرَّمزيِّ، ولا تُسلِّمُ بحُسنِ الظَّنِّ المُطلَقِ، تقول الآية: ﴿**أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟**﴾ [التوبة: ٤٩].

السقوط هنا يُسجَّلُ بوَصفِه مَوقفًا وجوديًّا يَستوجِبُ التأمُّلَ والمُراجَعةَ، لا الإهمالَ.

ولأجل تحقيق هذه المَنظومة، يَشترط القرآنُ شرطًا رئيسًا في السّائرينَ نحوَ التَّزكية: النيّة الصّادقة المُقترنة بالفعل، يقول -تعالى-: ﴿**إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا**﴾ [النساء: ١٤٩].

يتجاوز الإصلاح هنا الخطابَ إلى اختيار عمليٍّ يُعيد ترتيبَ المَواقف والنيّات. وبذلكَ، يمُنَحُ المُعوِّقُ إمكانيّةَ التحوُّل، لكنْ بشرط أن يتحوَّلَ حقًّا، لا أن يَدور حولَ نفسه في اعتذارات لا يُصاحِبُها أثَرٌ.

وهكذا، تَبني الرُّؤيةُ القرآنيّةُ وَعيًا خُلُقيًّا مُتماسكًا في التَّعامُلِ مع المُعوِّقِ، يَجعل مِن كلِّ لحظةِ ضعفٍ فرصةً للبِناء، ومن كلِّ موقفِ

إخفاقٍ مَدخلاً للترقِّي، شرطَ أن تتحقَّقَ الإرادةُ الصّادقةُ، وأن تتطهَّرَ النَّفسُ من المُزاحَفة والمُراوَغة. ومن خلال هذه التَّربيةِ المُتوازنة، تتشكَّلُ جماعةٌ لا تُطهِّرُ نفسَها بالتَّقوى، وتُطهِّرُ بيئتَها من الرَّمادِ، وتَفتح البابَ لعَودةِ مَن يُريدُ أن يَعود، ما دامَ الصِّدقُ هو الجسر، والفِعلُ هو البُرهان.

الفصل الثامن:

أدوات المُعوِّقينَ في العالم المعاصِر -
من التَّعبئة النَّفسيّة إلى تعطيل الإرادة

■ المبحث الأول: الإعلام كأداة للتَّعويق

في عالمٍ تتسابقُ فيه الرَّسائلُ نحوَ العينِ والأذُن، تَعدَّى الإعلامُ دَورَه بوصفه وسيلةً لنقلِ الخبرِ، وتحوَّلَ إلى جهازٍ ثقافيٍّ ضخمٍ يُعيد صياغة البِنى النَّفسيّةِ، ويمنهج المزاجَ العامَّ، ويُبرمجُ الاستجابةَ الإنسانيّةَ تجاهَ القضايا والمواقف. ومع هذا التحوُّل البنيويِّ، صارت الرَّسائلُ الإعلاميّةُ تُسهم بدورٍ جوهريٍّ في إنتاج المُعوِّق الخفيِّ، من خلال استهلاكٍ يوميٍّ ناعمٍ يُعيدُ تَرتيبَ الأولويّات، ويُضعِفُ مركزَ العَزمِ في النَّفسِ، ويَمنحُ التردُّدَ مظهرًا عصريًّا مُريحًا.

تجاوز الإعلام الحديث مخاطبةَ الإرادة بصورة واضحة، وأصبحَ يشتغلُ على الحوافزِ والعواطف، فيُغرقُ المُتلقِّي في صور مُشبَعة، ويَصنع له عالمًا من البَدائلِ الرَّمزيّة، ويُقدِّمُ له قضايا مصنوعةً تَشغلُه عن قضاياه الأصليّة. هذا النَّوعُ من التَّعبئة باتَ يعملُ باعتباره تشويهًا دائمًا للاتِّجاه؛ بحيثُ يُصبحُ الإنسانُ مَسكونًا بأزماتٍ مُصمَّمة، ومُندمجًا في سَرديّاتٍ خارجيّة تُفرِغُ وَعيَه من جُذوره. ومن خلال هذا التَّوجيه النّاعم، يُعاد إنتاجُ المُعوِّق، بوَصفِه فَردًا يَظنُّ أنَّهُ يُتابع، على حين أنَّه يَنزاحُ بهدوءٍ عن موقعِ الفعل.

يقول -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ**﴾ [لقمان: ٦].

هذه الآيةُ، وإنْ نزلَت في سياق محدَّد، لكنّ بنيتَها الرَّمزيّةَ تُشيرُ إلى نمطٍ من التلقّي يُفضِّلُ التَّلهيةَ على المَعنى، ويمَنحُ اللَّهوَ سلطةً على القلبِ، حتى يُحرَف المسارُ دونَ وَعي. وهذا هو تمامًا ما يَصنعُه الإعلامُ حين يُعيد تشكيلَ الذّائقة، ويُدخِلُ المفرداتِ الجَوفاءَ إلى قاموس الاهتمام، ويُحوِّلُ الخبرَ إلى عرضٍ مسرحيٍّ، والفكرةَ إلى صورة عابرة، والمَوقفَ إلى نكتة قابلة للمُشاركة.

في هذه البيئة، لا يتراجعُ الإنسانُ عن مسؤوليّته عبرَ قرارٍ، وإنمَّا يتحوَّلُ التَّراجُعُ إلى نتيجةٍ طبيعيّةٍ لتآكُلِ الارتباط بالمَعنى. البرامجُ التي تُصوِّر الحياةَ بوَصفها لحظةَ استهلاكٍ، والمحتوى الذي يُروِّج لفكرة السُّخريّة من الالتزام، والقصصُ التي تُعيد إنتاجَ الهزيمة الذّاتيّة، كلُّها تُمثِّلُ أدواتِ تَعويقٍ مُغلَّفة بالفنِّ أو التَّرفيه. هذه الأدواتُ تَشتغلُ من داخل المُشاهَدة، ومن خلال التَّكرار، حتى يُعادَ بناءُ العقلِ نفسِه على نحوٍ يَجعلُه يُفرِّغُ أفعالَه من مَعناها، دونَ أن يَشعر.

يُقابلُ هذا التيّارَ خطابٌ قرآنيٌّ يُثبِّتُ الرُّؤيةَ، ويُعيد تركيبَ مركزِ الحافزِ في النَّفسِ، يقول -تعالى-: ﴿**فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ**﴾ [هود: ١١٢].

تُبنى الاستقامة وسطَ موجٍ من المُؤثِّرات، وتُرسَّخُ رغمَ كثافةِ الخطابِ المُوجَّه، وتُمارَس بوصفها فعلًا يوميًّا يُعيد للإنسان سيادتَه على نفسه، وسطَ عالمٍ يُحاوِلُ استلابَها منه بلُطفٍ شَديد. وهذه الاستقامةُ تُمثِّلُ

الجوابَ الطَّبيعيَّ على مُعوِّقِ الإعلامِ؛ لأنَّها تبتعدُ عن نمطِ الرَّدِّ على الصُّورةِ بصُورةٍ، وتَردُّ على الانحرافِ بالثَّباتِ، وعلى التَّهييجِ بالهدوءِ العَميقِ الذي يَستمدُّ من الوَحيِ إيقاعَه الدّاخليَّ.

بهذا يتبيَّنُ أنَّ الإعلامَ في صورته الحاليّةِ يُقاس بما يُحدثه من أثَرٍ في النَّفسِ، وليسَ بما يُنتِجُه من مُحتوًى فقط. إنَّه معملٌ ضخمٌ يُعِدّ الإنسانَ ليتأخَّرَ عن مَوضعِه، ويُثقِل عليه خطواتِ المُبادرةِ، ويَصنع له عالماً من الانشغالِ لا يُبقي له وقتًا للتأمُّلِ في مَوضعِه من الخَريطةِ الرِّساليّةِ. وهنا تُصبح المقاومةُ فعلاً تربويًّا طويلَ الأمَدِ، يَسعى لتَثبيتِ القلبِ، لا إلى إغلاقِ النّافذةِ.

في عالمٍ تُعاد فيه صياغةُ الحاجاتِ البشريّةَ عبرَ مَنطق السُّوقِ يتحوَّلُ الاقتصادُ إلى آليّةٍ ثقافيّةٍ تشتغلُ على إعادة تَشكيلِ النَّفسِ، وتَحديدِ أنماطِ العَيشِ، وتَرسيخِ قِيَمٍ تُفرِّغُ الفعلَ من مَعناه الرِّساليِّ. في هذا السِّياقِ، يُولَدُ المُعوِّقُ من داخل الرَّغبةِ، ويتشكَّلُ من كثافة العُروضِ، وتكرارِ الحَوافزِ، وتَضخيمِ الكماليّاتِ حتى تَغدو ضَروراتٍ، وتَفريغِ الضَّروريّاتِ حتى تَبدوَ عِبئًا على السَّعادة الشَّخصيّة.

يُعيد النموذج الاقتصاديُّ الاستهلاكيُّ تعريفَ النَّجاحِ بوَصفه قدرةً على الإنفاق، ويُروِّجُ لفكرةِ الامتلاءِ عبرَ التَّراكُمِ الماديِّ، ويُربّي الذَّوقَ العامَّ على تَعظيمِ "الامتلاكِ" لا "التَّحقُّق". ومع كلِّ دورةٍ استهلاكيّةٍ، تنزاحُ النَّفسُ خطوةً عن مركزِها، ويُعاد توزيعُ الطُّموحِ داخلَها؛ بحيث

يُستبدَلُ السَّعيُ بالاقتناء، والمُبادرةُ بالرّاحة، والتَّضحيةُ بالمُقارنة. وهكذا، يُصبح التَّعويقُ عمليّةً اقتصاديّةً نفسيّةً، تَصنعُ فيها الرَّغبَةُ سجنَها الخاصَّ، وتُعيدُ تشكيلَ الإرادةِ بحيثُ تَعجزُ عن مقاومة نداءِ الكمالِ المَصنوع.

يَعرضُ القرآنُ هذا النَّمطَ من التَّعويق بأسلوب بالغ التَّبصير، في قوله -تعالى-: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر: ٣].

يكشف المشهد هنا عن نمطٍ من الغَفلة المُمتدّة، التي تُصنَع من وفرةِ اللَّذة، وتُغلَّفُ بالأملِ، وتُنهي الفاعليّةَ بإحساس زائف بالأمان. هذا الأسلوب من التَّمدُّد الاستهلاكيِّ لا يُنتجُ فَقرًا، بل يُنتِجُ خُمولًا رُوحيًّا، يُحيِّدُ فيه العقلُ عن النَّظر في الغاية، وتَنشغِلُ النَّفسُ باجتيازِ قوائمِ الرَّغباتِ دونَ توقُّف.

كما يتجلَّى هذا التَّعويقُ الرَّمزيُّ في مشهد بَني إسرائيل حينَ قالوا لموسى: ﴿**لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ**﴾ [البقرة: ٦١].

الرَّغبةُ هنا تُقدَّمُ بوَصفِها حقًّا، لكنَّها في بنيتِها تُعبِّرُ عن تململٍ داخليٍّ، وعجزٍ عن الانضباط، وانشغالٍ بالتَّنوُّعِ على حساب الرِّسالة. هذا الخطابُ، رغمَ مَظهرِه البَسيط، يُخفي رُوحًا مُعوِّقةً، تُريدُ للحياةِ أن تَخضعَ لمزاجِها، وتُقاوِمَ التقشُّفَ الفِكريَّ والنَّفسيَّ الذي يُصاحِبُ

المَسيرَ نحو المَعنى. ومع كلِّ مَطلبٍ جديدٍ، يُعاد ترتيبُ الأولويّات، ويُستبدَلُ الصَّبرُ بالمُطالبةِ، والمُجاهدةُ بالمقارنةِ، حتى تَفقِدَ الرِّحلةُ زخمَها.

الاقتصادُ الاستهلاكيُّ الحديثُ يُكرِّسُ هذه الحالةَ من خلال أدواتٍ ناعمةٍ: الإعلانات، والمُؤثِّرينَ، ودورات "تحقيق الذّات" عبر المُنتجات، والرَّبطِ بين القيمةِ الفرديّةِ ونوعِ الهاتفِ، أو ماركةِ السَّيارةِ، أو عددِ الزِّياراتِ السِّياحيّة. في هذا الجو، يَنقطعِ ارتباطُ الانشغالِ بالفعلِ الواعي، ويتحوَّلُ إلى نمطِ عيشٍ. وتَفقدُ المُقاومةُ مَعناها حينَ يَغيب الإحساسُ بالضَّياعِ، وحينَ تَبدو الحياةُ - في ظاهرِها - مُكتملةً.

في المقابل، يُقدِّمُ القرآنُ صيغةَ توازُنٍ دَقيقةً، تقومُ على التَّزكيةِ، يقول -تعالى-: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

المقاربةُ تَنطلقُ هنا من العَلاقةِ بالنِّعمة، فالمؤمنُ لا يُطلَبُ منه الزُّهدُ الحادُّ، بل يُطلَبُ منه الوَعيُ بالحاجةِ، والفَصلُ بينَ الرَّغبةِ بوصفها أداةً، والرَّغبةِ بوصفها هويّة. ومع هذا الوَعي، لا تتحوَّلُ النِّعمةُ إلى قيدٍ، ولا يُصبحُ الامتلاكُ بابًا للقُعودِ، وتَبقى الرُّوحُ متَّصلةً بمَركزِها، قادرةً على التَّمييزِ، وعلى ترتيبِ الأولويّاتِ، انطلاقًا من رؤيةٍ رساليّة، لا من حساباتِ السُّوق.

وهكذا، يَنجلي المُعوِّقُ من تحتِ الرَّغبةِ، ويتَّضحُ أنَّ كثيرًا من

التَّراجُعِ يَظهر في هيئة مَشغوليّة دائمة، واندماجٍ في التزامات استهلاكيّة تُفرِّغُ الهِمّةَ من طاقتها، وتُحوِّلُ السَّعيَ إلى مطاردة لا تَنتهي. وفي مُواجهة هذا النَّمط لا بدَّ أنْ تُزرَعَ بدائلُ ذوقيّةٌ وتربويّةٌ ورُوحيّةٌ، تُعيد للإنسان سيادتَه على حاجته، وتُحرِّرُه من سلطة الإغراء المُعلَّب، وتَمنحُه إمكانيّةَ الفعلِ من جَديد.

■ المبحث الثاني: مقاومة الأدوات المُعوِّقة

حينَ تتراكمُ أدواتُ التَّعويق في المحيط الإنسانيِّ المعاصر، يُصبحُ التَّثبيطُ نسقًا بيئيًّا شاملاً، يُطوِّقُ الإنسانَ من جهاته الأربع: إعلام يُعيد تشكيلَ أولويّاته، واقتصاد يُغريه بتَضخيم الرَّغبة، ومحتوًى بَصريّ يُثقِلُ عليه الإدراكَ، ومنظومة قِيَم سائلة تُربكُ ضَميرَه وتُشوِّشُ قدرتَه على الحَسم. وفي مواجهة هذه البيئة المُركَّبة لا بدَّ من بناء مقاومة تستندُ إلى وعي تحرُّريٍّ مُتجذِّر في الرُّؤية القرآنيّة، يُعيد للإنسان سُلطتَه على نفسه، ويَمنحُه مناعةً ذاتيّةً تُبقيه فاعلاً لا تابعًا، مُبادرًا لا مُستنزَفًا.

التحرُّرُ، في المنظور القرآنيِّ، لا يَنفصلُ عن البَصيرة. فمُواجهةُ المُعوِّق تحتاجُ إلى تفكيك صيغته، وفَضح مَنطقه، وإعادة تَرتيب الدّاخلِ النَّفسيِّ، بما يَمنعُ الامتصاصَ غيرَ الواعي للرَّسائل الخَفيّة. يقول -تعالى-: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ**

﴿ٱتَّبَعَنِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالبصيرةُ هنا وعيٌ نافذٌ يَتجاوزُ سطحَ الظَّواهرِ، ويَكشفُ الغاياتِ الكامنةَ خلفَ الألفاظِ والإشارات، ويُمكِّنُ المؤمنَ من قراءة العالمِ بنورِ الوَحي، لا بعَينِ السُّوقِ أو ترندات المنصّات.

وفي سبيل هذا الوَعي، يُربِّي القرآنُ الإنسانَ على استعادة مركزِ المُبادَرة، يقول -تعالى-: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

يتمثّلُ الإخلاص هنا في استعادة للقدرة على الفصلِ بينَ الصَّوت الدّاخليِّ وصخبِ الخارجِ. فحينَ يُربَّى القلبُ على نقاء النِّيّة لا يَسهلُ استلابُه بصُور مَصنوعةٍ، ولا تَنزلقُ إرادتُه مع كلِّ مَوجةٍ. فالمقاومة تَبدأُ من داخلِ النَّفسِ، لحظةَ يتذكَّرُ الإنسانُ غايتَه، ويَسترجعُ مَشروعَه، ويُعيدُ قراءةَ مَوضعِه، بوَصفِه صاحبَ رسالةٍ، لا مُجرَّدَ مُستهلِكٍ.

كما تتأسَّسُ المقاومةُ في القرآنِ من خلال تربيةٍ جماعيّة، لا تقومُ على التَّنظيرِ الفرديِّ فقط، يقول -تعالى-: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الوعيُ الجَمعيُّ هنا ليسَ مُجرَّدَ تواطُؤٍ قِيَميّ، إنَّه بِنيةٌ حيّةٌ تحفظُ الطَّهارةَ النَّفسيّةَ في زمنِ الفَوضى الرَّمزيّةِ، وتُنتجُ توازنًا بينَ الرُّؤيةِ

والسُّلوك، وتُشكِّلُ فضاءً معنويًّا يَحمي المؤمنَ من التَّسلُّلِ البَطيءِ للأفكار المُعوِّقة. وهذا المُستوى من العملِ يُنشِئُ خطابًا بديلاً، ومحتوًى راقيًا، وذَوقًا عامًّا، لا يُخجلُ من المَعنى، ولا يُهمِّشُ الرِّسالة.

وتتجلَّى هذه التَّربيةُ التحرُّريّةُ في لحظة الاستجابة الصّافية، كما في قوله -تعالى-: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ**﴾ [النور: ٥١].

هذه الاستجابةُ تُبنى على وعيٍ رساليٍّ ناضجٍ، يَربطُ الحُكمَ بالمَعنى، والطَّاعةَ بالبَصيرة، والمُبادرةَ بالثِّقة. وفي هذه اللَّحظة تكتملُ صورةُ الإنسان المُتحرِّر من التَّعويق؛ لأنَّ إرادتَه أصبحَت تَستندُ إلى نواةٍ داخليّةٍ مُضيئة، تَأخذُ قرارَها من مَصدرٍ أعلى. وفي مواجهة الأدوات المُعوِّقة، تُبنى المقاومةُ من خلال بناءِ حسٍّ نقديٍّ رَصينٍ، يَستعينُ بالوَحي لفَهمِ العالَم، دونَ أن يَسقطَ في ردود الفعلِ الهوجاء. هذا الحسُّ يُعيدُ تَنظيمَ العلاقة مع المادّة، ومع الصُّورة، ومع اللُّغة، ومع الجماعة، ويَمنحُ الإنسانَ فرصةَ التَّوازن: فلا انسحابَ إلى الهامش، ولا اندماجَ يُخدِّرُ الإرادةَ، وإنَّما حضورٌ فاعلٌ واعٍ، يَنظر في كلِّ صوتٍ من حَولِه: هل يُضيفُ إلى معناهُ، أم يُسرِّبُ له المُعوِّقُ من ثقبٍ لم يَنتبِهْ له بَعد؟

خاتمة

حينَ تُختَمُ هذه الرِّحلةُ القرآنيّةُ، التي سعَت إلى تفكيكِ صورةِ «المُعوِّقينَ» في كتابِ اللهِ، فإنَّ القَضيّةَ ما تزالُ مفتوحةً، ويَبدأُ منها تأمُّلٌ جديدٌ في طبقات المَعنى، وفي صُورِ التَّثبيطِ المُتخفِّيةِ التي تَسكُنُنا أكثرَ ممّا نَراها في الخارجِ.

لقد كان هذا الكتابُ مُحاوَلةً لصياغةِ وعيٍ تأويليٍّ قرآنيٍّ، يُعيد فهمَ ظاهرةِ المُعوِّقِ، بوَصفِه مُكوِّنًا دائمًا في الحياةِ الإيمانيّةِ، يَتبدَّلُ وجهُه من زَمنٍ إلى زمنٍ.

المُعوِّقُ في ضَوءِ هذا المَشروعُ مُتخاذِلٌ في ساحةِ الجهادِ، مُتردِّدٌ عندَ حدودِ التَّكليفِ، وهو صورةٌ من صورِ اختلالِ الفاعليّةِ الدّاخليّةِ للإنسانِ. قد يَظهرُ في هيئةِ النّاصحِ، أو في هيئةِ المُثقَّفِ المُتحفِّظِ، أو في صورةِ التّاجرِ المُنشغِلِ، أو حتّى في هيئةِ المُتدينِ المُرهَقِ من واقعٍ مُفرَّغٍ من المَعنى. المُعوِّقُ، بهذا المَعنى، قد يكونُ خارجَنا، ولكنَّ الغالبَ أنَّه مُكوّنٌ داخليٌّ يُطلُّ برأسِه كلَّما انطفأتْ جذوةُ الحافزِ، وكلَّما انشغلْنا عن الغايةِ، وكلَّما أوغلْنا في الحذرِ حتَّى ذبلتْ فينا روحُ التقدُّمِ.

ولأنَّ القرآنَ لا يُواجِهُ الظَّواهرَ بسَطحيّةٍ، فقد أسَّسَ لبنيةٍ مُتكاملةٍ لفَهمِ هذه الحالة:

- كشف جذورَها النَّفسيّةَ من خلالِ وَصفِ المَرَضِ القَلبيِّ

وبيَّنَ آلياتها الاجتماعيّةَ عبرَ تحليلِ دَورِ المُرجفينَ والمُعوِّقينَ والمُخذِّلينَ

- ووضعَ أمامَنا نماذجَ حيّةً من التّاريخِ الرِّساليِّ، بَدءًا من قابيلَ، إلى الذين تَثاقلوا عن الخُروجِ في تَبوك، إلى السّامريِّ الذي قدَّمَ البَديلَ الرَّمزيَّ عن الرِّسالة
- ثم فتحَ لنا بابَ التأمُّلِ في الرُّموزِ، بوَصفِها أدواتِ تأويلٍ، لا مُجرَّدَ تَجميلٍ بلاغيٍّ.

ومعَ كلِّ تحليلٍ، كانَ القرآنُ يُشير إلى الطَّريقِ المُضادِّ:

الاستجابة

البَصيرة

الثَّبات

إصلاح النِّية

تفعيل الطمأنينة

والتحرُّر من التَّبعيّةِ النَّفسيّةِ للواقعِ المُهندَسِ إعلاميًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا.

وفي فصول الكتاب الأخيرة، حينَ دخلْنا عالَمَ المُعوِّقينَ المُعاصرينَ، بدَتِ القضيّةُ أكثرَ إلحاحًا. فالتَّعويقُ تجاوزَ الأصواتَ التي تَهمس في الخَفاء، وأصبحَ بنيةً صاخبةً، تُخدِّرُ الحافزَ تحتَ مُسمَّيات شتّى:

الاعتدال، والترَّفيه، والواقعيّة، والحياد، والسُّوق، والرَّغبة، والسُّخرية،

والحِكمة الزّائفة، والتَّوازن المُختلّ. وفي قلب هذا الضَّجيجِ، كانَت الحاجةُ إلى خطابٍ قرآنيٍّ يمَنحُ الإنسانَ مناعةً داخليّةً، لا ردّاتِ فِعلٍ ظَرفيّةٍ.

لقد سارَ هذا المَشروعُ في خطٍّ مُزدوج:

من جهةٍ، تفكيكُ صورةِ المُعوِّقِ في ضَوءِ البنيةِ القرآنيّة،

ومن جهةٍ أُخرى، بناءُ الوَعيِ المُقاومِ الذي يُحرِّرُ الإنسانَ من التَّشويشِ المَعنويِّ، ويَستعيدُ له صَوتَه الدّاخليَّ.

لكنَّ المعركةَ لم تُحسَمْ بنصٍّ، ولن تُحسم بكتابٍ، طالَما أنَّ المُعوِّقَ هو تحدٍّ وجوديٌّ مُستمرٌّ.

في كلِّ لحظةٍ يتَّخذُ فيها الإنسانُ مَوقفًا، يتكرَّرُ السُّؤالُ:

هل أُبادرُ، أم أتردَّدُ؟

هل أُقاومُ، أم أُراوغُ؟

هل أُصدِّقُ الرِّسالةَ، أم أبحثُ عن مَخرجٍ لغويٍّ للفرارِ من وجعِ الالتزام؟

وفي كلِّ مرّةٍ، يَظهرُ في داخله ظلٌّ من ظلالِ المُعوِّقِ، قد يَختبِئُ في تأجيلٍ، أو في مُقارَنةٍ، أو في فُتورٍ.

ولهذا، لا يَنتهي الكتابُ إلا ببدءِ الطَّريقِ.

طريقِ التَّربيةِ اليَوميّةِ على الانتباهِ،

على إعادةِ ضَبطِ النِّيّةِ،

على تحرِّي الهمِّ الرِّساليِّ،
على غسلِ القلبِ من ثقافة الأعذارِ المُلمَّعة،
وعلى الإصرارِ على المَعنى، وسطَ عالَمٍ يُعيدُ إنتاجَ التَّفاهةِ باحترافٍ ناعم.

أشار القرآن إلى حتميّةِ وجودِ المُعوِّقينَ، وأرشدَ المؤمنينَ إلى مَعرفتِهم، ومُواجهتِهم، وتَجاوُزِهم، دونَ أن تتحوَّلَ هذه المَعرفةُ إلى شُبهةٍ، أو هذه المُواجَهةُ إلى عَداوة، أو هذا التَّجاوزُ إلى تكبرٍّ.

الرِّسالةُ تُستكمَلُ في النَّفسِ أوَّلاً.

ومَن عرفَ مُعوِّقَ نفسِه، وأسكتَه، تحرَّرَ من الخارجِ، وبدأ الحركةَ نحوَ الطَّريقِ.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول: المُعوِّقُ في الرُّؤيةِ القُرآنيّة – من الظّاهرِ إلى الرَّمز ٩

١١ | المبحث الأول: «ع-و-ق» في اللُّغة والقرآنِ – الجَذرُ الذي يَكشِفُ الوَظيفةَ

١٧ | المبحث الثاني: المُعوِّقُ بوصفه ظاهرةً سلوكيّةً داخليّة

٢٠ | المبحث الثالث: الرَّمزُ القرآنيُّ وتوصيفُ المُعوِّقينَ الخَفِيِّينَ

الفصل الثاني: المُعوِّقونَ في مسيرة النُّبوّاتِ – التَّسلسُل التّاريخي ٢٧

٢٩ | المبحث الأول: نوح عليه السلام – السُّخريّةُ الجَماعيّةُ والإغلاقُ العَقليّ

٣٢ | المبحث الثاني: إبراهيم عليه السلام – تَعويقُ القُربى والدِّين الوِراثيّ

٣٥ | المبحث الثالث: موسى عليه السلام – التَّخذيل في مُفترَقِ التَّحرُّر

٣٩ | المبحث الرابع: عيسى عليه السلام – التآمُر الدِّينيُّ والتَّميع الرِّساليّ

٤٢ | المبحث الخامس: النبيُّ محمَّد ﷺ - التَّعويقُ في ذروة التَّمكين

الفصل الثالث: الرَّمزيّةُ القرآنيّةُ في تَوصيف المُعوِّقين ٤٧

٤٩ | المبحث الأول: العَمى - انسدادُ البَصيرة وفُقدان التَّفاعل مع الحقِّ

٥٢ | المبحث الثاني: القُعود - رمزُ التخلُّف الإراديِّ وتجميدِ الفاعليّة

٥٧ | المبحث الثالث: الزَّلزلةُ والرَّجفةُ والمَرَض

الفصل الرابع: البُعد التَّربويُّ والخُلُقيّ في التَّعامُلِ مع المُعوِّقينَ ٦٣

٦٥ | المبحث الأول: منطق التَّربية القرآنيّة في مُواجَهة التَّعويق

٦٨ | المبحث الثاني: التحوُّل الخُلُقيّ من المُعوِّقِ إلى الفاعل

الفصل الخامس: المُعَّوقونَ في الواقع المُعاصر- من الفَردِ إلى البنية ٧٣

٧٥ | المبحث الأول: صناعة التَّعويق في العصر الحديث

٧٨ | المبحث الثاني: هندسة التَّثبيط الجماهيريّ

٨١ | المبحث الثالث: مقاومة التَّعويق في الوعي المعاصر

الفصل السادس: الرَّمزيّة وتجليّاتُها في القرآن ٨٥

٨٧ | المبحث الأول: البنيةُ الرَّمزية للمُعوِّقِ في القرآن

٨٩ | المبحث الثاني: تجلِّيات المُعوِّق الرَّمزيِّ في نماذج قرآنية

٩٣ | المبحث الثالث: وظيفةُ الرَّمزِ في كشف المُعوِّقِ الخفيِّ

الفصل السابع: أبعاد التَّعامُل الخُلُقيّ والتَّربويِّ مع المُعوِّقينَ ٩٧

٩٩ | المبحث الأول: خطاب الإصلاح في مُواجهةِ المُعوِّق

١٠١ | المبحث الثاني: التَّربية الوقائية ضدَّ التَّعويق

١٠٤ | المبحث الثالث: المعوِّق بين المحاسبة والتَّزكية- نحو منظومةٍ أخلاقيّةٍ عمليّة

الفصل الثامن: أدوات المُعوِّقينَ في العالم المعاصِر - من التَّعبئة النَّفسيّة إلى تعطيل الإرادة ١٠٩

١١١ | المبحث الأول: الإعلام بوصفه أداةً للتَّعويق

١١٦ | المبحث الثاني: مقاومة الأدوات المُعوِّقة

١١٩ | خاتمة

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

عن هذا الكتاب

مَن همُ المُعوِّقونَ؟
هل هُم المُتخاذلونَ عن السّاحات؟ أم أولئكَ الذينَ يَختبئُونَ خلفَ لغة التَّحفُّظ والحكمة الباردة؟
وهل المُعوِّقُ دائمًا شخصٌ خارجَنا؟ أم يَسكنُ في داخلِ كلِّ نفسٍ لحظةَ تتردَّدُ، وتُؤجِّلُ، وتَبحثُ عن مَخرجٍ لغويٍّ أنيقٍ للفرارِ من المَعنى؟
في قلبِ كلِّ مشروعٍ نَهضويٍّ، يتربَّصُ صوتٌ خافتٌ...
لا يَعترِضُ، ولا يُواجِهُ، لكنَّه يُبطِّئُ الخُطا، يُعيدُ ترتيبَ الأولويّات، ويُغلِّفُ التردُّدَ بمُفرداتِ الحِكمةِ والواقعيّة.
هذا الكتابُ يأخذُكَ في رحلةٍ قرآنيّة، تكشفُ بنيةَ المُعوِّقينَ، كما رسمَها الوَحيُ:
إنَّهم رُموزٌ نفسيّةٌ، وأدوارٌ اجتماعيّةٌ، وأنماطٌ ثقافيّةٌ، تتكرَّرُ بصُورٍ جديدةٍ في كلِّ عَصر، وليسوا مجرَّدَ أسماءٍ يتداولُها التّاريخُ.
من تَبوكَ إلى شاشاتِ الإعلام، ومن فُتورِ بَني إسرائيلَ إلى دوّامةِ الاستهلاكِ الحَديث،
يتتبَّعُ الكتابُ العَوائقَ التي تُصيبُ الإرادةَ، وتُفسدُ المَعنى، وتُحوِّلُ الإنسانَ من فاعلٍ إلى هامش.
قراءةٌ تربويّةٌ عَميقةٌ، تُضيءُ داخلَ النَّفس، كما تُحلِّلُ الخارجَ، وتَطرحُ في النِّهايةِ سُؤالًا لا مَفرَّ منه:
هل انتصرتَ يَومًا على مُعوِّقِكَ؟ أم كنتَ جُزءًا من تَثبيطٍ لا يَحملُ اسمَكَ، لكنَّهُ يَحملُ صَوتَكَ.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد